المنقذ من الضلال

والمفصح بالأحوال

بسم الله الرحمن الرحيم

المُنقِذ مِن الضَّلال

وَالمُفصِحُ بِالأَحوال

تأليف

الإمام المجدد، حجة الإسلام والمسلمين

زين الدين، أبي حامد

محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي

الطوسي الطابراني الشافعي

رضي الله عنه

(٤٥٠-٥٠٥هـ)

تشرف بخدمته والعناية به

اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي

دار المنهاج

جدة

الطّبعة الأولى
١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م
جميع الحقوق محفوظة للناشر

اسم الكتاب : المنقذ من الضلال
المؤلف : الإمام الغزالي (ت ٥٠٥ هـ)
الإعداد : مركز دار المنهاج للدراسات
موضوع الكتاب : السيرة الذاتية ، علم الكلام
مقاس الكتاب : (٢٤ سم)
تصنيف ديوي الموضوعي : (٩٢٠ - ٢٤٠)

عدد الأجزاء : (١)
عدد المجلّدات : (١)
نوع الورق : شاموا فاخر
نوع التجليد : مجلّد كرتوناج
عدد الصفحات : (١٦٠ صفحة)
عدد ألوان الطباعة : لونان

التصميم والإخراج : مركز المنهاج للصف والإخراج الفني

لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزءٍ منه بأيٍّ شكلٍ من الأشكال ، أو نسخه ، أو حفظه في أي نظام إلكتروني أو ميكانيكي يمكّن من استرجاع الكتاب أو أي جزءٍ منه ، وكذلك لا يسمح بترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبقاً من الناشر .

الرقم المعياري الدولي
ISBN: 978 - 9953 - 498 - 37 - 9

دار المنهاج

لبنان ـ بيروت

هاتف : 806906 05 ـ فاكس : 813906 05

دار المنهاج للنشر والتوزيع

لصاحبها عمر سالم باجخيف

وفقه الله تعالى

المملكة العربية السعودية ـ جدة

حي الكندرة ـ شارع أبها تقاطع شارع ابن زيدون

هاتف رئيسي 6326666 ـ الإدارة 6300655

المكتبة 6322471 ـ فاكس 6320392

ص . ب 22943 ـ جدة 21416

عضو في الاتحاد العام للناشرين العرب

عضو في إدارة جمعية الناشرين السعوديين

عضو في نقابة الناشرين في لبنان

www.alminhaj.com

E-mail: info@alminhaj.com

الموزعون المعتمدون داخل المملكة العربية السعودية

جدة

مكتبة دار كنوز المعرفة

هاتف 6570628 ـ 6510421

مكة المكرمة

مكتبة الأسدي

هاتف 5570506 ـ 5273037

مكة المكرمة

مكتبة نزار الباز

هاتف 5473838 ـ فاكس 5473939

المدينة المنورة

دار البدوي

هاتف 0503000240

المدينة المنورة

مكتبة الزمان

هاتف 8366666 ـ فاكس 8383226

الطائف

مكتبة المزيني

هاتف 7365852

الدمام

مكتبة المتنبي

هاتف 8344946 ـ فاكس 8432794

الرياض

دار التدمرية

هاتف 4924706 ـ فاكس 4937130

الرياض

مكتبة الرشد

هاتف 2051500 ـ فاكس 2253864

الرياض

مكتبة جرير

وجميع فروعها داخل المملكة وخارجها

هاتف 4626000 ـ فاكس 4656363

الرياض

مكتبة العبيكان

وجميع فروعها داخل المملكة

هاتف 4654424 ـ فاكس 2011913

الموزّعون المعتمدون خارج المملكة العربيّة السّعوديّة

Virgin MEGASTORE

فيرجن وفروعها في العالم العربي

الجمهورية اليمنية

مكتبة تريم الحديثة ـ حضرموت

هاتف 417130 ـ فاكس 418130

مملكة البحرين

مكتبة الفاروق ـ المنامة

هاتف 17272204 ـ فاكس 17256936

الإمارات العربية المتحدة

حروف للنشر والتوزيع ـ أبو ظبي

هاتف 5593007 ـ فاكس 5593027

مكتبة الإمام البخاري ـ دبي

هاتف 2977766 ـ فاكس 2975556

مكتبة دبي للتوزيع ـ دبي

هاتف 3339998 ـ فاكس 3337800

دولة الكويت

مكتبة دار البيان ـ حَوَلي

تلفكس 22616490 ـ جوال 9952001

دار الضياء للنشر والتوزيع ـ حَوَلي

هاتف 22658180 ـ فاكس 22658180

جمهورية مصر العربية

دار السلام ـ القاهرة

هاتف 22741578 ـ فاكس 22741750

مكتبة نزار الباز ـ القاهرة

هاتف 25060822 ـ جوال 0122107253

الجمهورية اللبنانية

الدار العربية للعلوم ـ بيروت

هاتف 785107 ـ فاكس 786230

مكتبة التمام ـ بيروت

هاتف 707039 ـ جوال 03662783

المملكة المغربية

مكتبة التراث العربي ـ الدار البيضاء

هاتف 0522853562 ـ فاكس 0522854003

دار الأمان ـ الرباط

هاتف 0537723276 ـ فاكس 0537200055

دولة قطر

مكتبة الثقافة ـ الدوحة

هاتف 44421132 ـ فاكس 44421131

المملكة الأردنية الهاشمية

دار محمد دنديس ـ عمّان

هاتف 4653390 ـ فاكس 4653380

الجمهورية العربية السورية

مكتبة المنهاج القويم ـ دمشق

هاتف 2235402 ـ فاكس 2242340

جمهورية الجزائر

دار البصائر ـ الجزائر

هاتف 021773627 ـ فاكس 021773625

جمهورية الصومال

مكتبة دار الزاهر ـ مقديشو

هاتف 002525911310

الجمهورية التركية

مكتبة الإرشاد ـ إستانبول

هاتف 02126381633 ـ فاكس 02126381700

جمهورية أندونيسيا

دار العلوم الإسلامية ـ سوروبايا

هاتف 0062313522971

جوال 00623160222020

الهند

مكتبة الشباب العلمية – لكناؤ

هاتف 00919198621671

جمهورية فرنسا

مكتبة سنا ـ باريس

هاتف 0148052928 ـ فاكس 0148052997

انكلترا

دار مكة العالمية ـ برمنجهام

هاتف 01217739309 ـ جوال 07533177345

فاكس 01217723600

جميع منشوراتنا متوافرة على

موقع مكتبة نيل وفرات . كوم لتجارة الكتب

www.nwf.com

موقع رائد لتجارة الكتب والبرمجيات العربية

www.furat.com

فإنْ كُنتَ في زهدِ الأئمةِ راغباً فوطِّنْ علىٰ أنْ تَرتكبْكَ الوقائعُ
بنفسٍ وَقُورٍ عندَ كلِّ كريهةٍ وقلبٍ صَبُورٍ وَهْوَ في الصدرِ قانعُ
لسانُكَ مخزونٌ ورأسُك مُلجَمٌ وسرُّكَ مكتومٌ لدى الربِّ ذائعُ
وذكرُكَ مغمورٌ وبابُكَ مغلَقٌ وثغرُكَ بسَّامٌ وبطنُكَ جائعُ
وقلبُكَ مجروحٌ وسُوقُكَ كاسدٌ وفضلُكَ مدفونٌ وطعنُكَ شائعُ
وفي كلِّ يومٍ أنتَ جارعُ غُصَّةٍ منَ الدهرِ والإخوانِ والقلبُ طائعُ
نهارُكَ شُغْلُ الناسِ من غيرِ مِنَّةٍ وليلُكَ شوقٌ غابَ عنه الطَّلائعُ
فدونَكَ هٰذا الليلَ خذه ذريعةً ليومِ عَبُوسٍ عزَّ فيه الذَّرائعُ

الإمام الغزالي

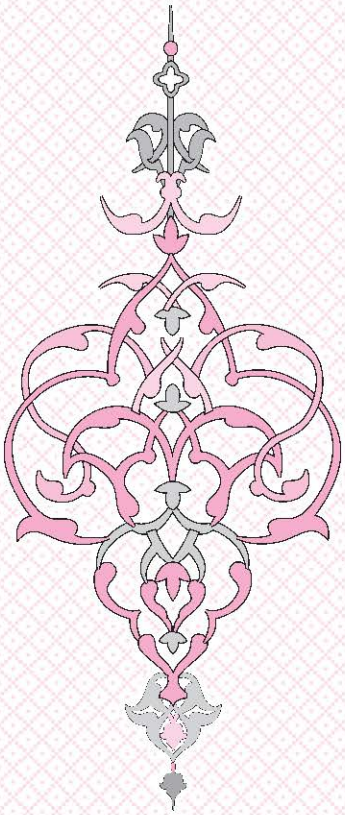

بين يدي الكتاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله مُولي النعم ، ودافع النقم ، والصلاة والسلام علىٰ سيدنا محمد سيد العرب والعجم ، وعلىٰ آله وأصحابه أولي الهمم ، ومن تبعهم وبلَّغ عنهم حتىٰ غدا كالعَلَم ، وجميع المسلمين من سائر الأمم .

وبعد :

فإن لله عز وجل المنّةَ علىٰ هٰذه الأمة : بأن جعل فيها علىٰ رأس كل مئة سنةٍ مَنْ يُجدِّد لها أمر دينها[1] ؛ فمنهم الخليفة الأموي الراشد عمر بن عبد العزيز ، ومنهم الإمام الشافعيّ ، ومنهم الإمام أبو الحسن الأشعريّ ، ومنهم الإمام أبو بكر الباقلانيّ ، وعلىٰ رأس المئة الخامسة يتصدَّر حجة الإسلام الغزاليّ ، وفيه يقول الحافظ السيوطيّ :

والخامسُ الحبرُ هو الغزاليْ ... وعدُّه ما فيه من جدالِ

ذلك الحبر الجليل الذي كان عزمه وهمته إحياء السنن ونشرها ، والتنبيه على البدع ومحدثات الأمور ومحوها ،

---

(١) رواه أبو داوود (٤٢٩١) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

ومقارعة أهل الضلالات بالحجج والبينات ، مع انكبابه على التصنيف والمداومة على التدريس .

وكيف لا يحمل لواء هـٰذا التجديد وهو تلميذ إمام الحرمين أبي المعالي الجوينيّ ، نهل من علومه ، حتىٰ غدا في حياة شيخه عَلَماً يُشار إليه بالبنان ؟!

وشهد له شيخه بأنه قد فاق أقرانه ، وبدأ بالتصنيف ، وعرض تصنيفه علىٰ شيخه ، فأثنىٰ عليه ، ثم بعد وفاة شيخه اختير للتدريس في المدرسة النظامية ببغداد سنة (٤٨٣هـ) .

ولما ظهرت الباطنية والفلاسفة ، وشاعت أفكارهم وتلبيساتهم بين المثقفين والمشتغلين بعلوم الشريعة ، ونالت حظها من الرواج ، وتغلغلت شبهاتها في مجالسهم ، ودخلت في تضاعيف كتبهم ، وفي ثنايا السطور . . انبرى الإمام حجة الإسلام ؛ ليدافع عن حقائق العلم والدين ، وليجلو صورته الناصعة لكل مريد ، فقرأ علوم الفلسفة حتىٰ غدا الإمامَ فيها ، فجمع أقوالهم في « مقاصد الفلاسفة » ، ثم بيَّن عوارها وخللها في « تهافت الفلاسفة » .

ولم يفتْهُ كشف المستور من عقائد الباطنية ، فألَّف « المستظهريّ » و« القسطاس المستقيم » في جملة كتب ورسائل تدل علىٰ سعة اطلاعه ، وعميق فهمه .

كتاب « المنقذ من الضلال »

هـٰذا الكتاب هو خلاصة تجربة الغزاليّ ، وعصارة جهده المضني في طلب الحق والحقيقة ، ولا سيّما وقد حبَّرهُ مؤلفه في سِنيِّه الأخيرة ، بعد أن قطع المسافات والسنوات بين طلب العلم والتدريس ، ثم أعقبتها خلوةٌ انهلَّتْ عليه فيها أنوار الحق ، فاستضاءت بذلك سريرته ، رحمه الله تعالىٰ رحمة الأبرار ، وجمعنا وإياه في دار القرار .

سبب تأليف الكتاب

يبين الإمام في مقدمته : أنه ورد عليه سؤال يطلب سائله من الإمام غايةَ العلوم وأسرارها ، وغائلة المذاهب وحقائقها ، وبيانَ خلاصة علم التوحيد ، وما يمكن أن يستفيده منه الباحث عن الحق ، وبيانَ بطلان مذهب الباطنية أهل التعليم الذين قَصَروا الحق علىٰ تقليد الإمام ، وبيانَ طريق الفلسفة ، وبيانَ أن طريق التصوف هل هو المرضيُّ الموصل للحق والصواب ؟

ويبين أيضاً أن لسؤاله شقّاً آخر مهمّاً يطلب سائله سببَ صرف الإمام عن نشر العلم ببغداد مع كثرة الطلبة ، ثم بيانَ الداعي إلىٰ نشر العلم بنيسابور بعد طول الانقطاع .

الجواب الشافي وفحوى الكتاب

لما لمس الإمام صدقَ السائل في الطلب ، وعلم حاجة الطلبة إلى الذوق الذي يترشح من الرسوخ في العلم ؛ فما راءٍ كمن سمعا . . سارع إلىٰ جوابه وقد صحَّح آنئذٍ النية ، فعرض له في المقدمة الجهد الذي بذله في تمحيص الأفكار ، ودراسة الفِرَق في سبيل دَرك الحقيقة ونشرها ، والذبّ عن السنة .

فعرَّف العلم الذي ينبغي الركون إليه ، والانصياع لأحكامه ، ثم عرَّج علىٰ ذكر طرق المضلِّلين ، الذين ينمِّقون ما جاء من الزيغ في كلامهم ، ويُزينونه بتمويهات الطرح العلميّ المتجرّد فيما يزعمون ، وبيَّن أن حقيقة منهجهم ما هي إلا سفسطة تقوم علىٰ جحد العلوم ؛ انطلاقاً من التشكيك في المحسوسات ، ثم محاولة تعميم هـٰذا التشكيك ؛ ليشمل الضرورات العقلية .

وبيَّن أنه كاد أن يتبنىٰ طريقتهم لولا أن الله تعالىٰ قذف في قلبه نور المعرفة ، وشرح صدره للتمسك بالضرورات العقلية ورفض التشكيك بها ، فاعتصم بذلك من داء التشكيك .

وخلص إلىٰ أن طلاب الحق محصورون في أربع فرق : متكلمون ، وباطنية ، وفلاسفة ، وصوفية .

فانبرىٰ يعرض هـٰذه الفرق تترىٰ ، يُبيِّن صوابها وعوارها ، وما لها ، وما عليها .

فبدأ بالمتكلمين ، وأبرز أهمية علم الكلام في تثبيت دعائم الدِّين ، والذب عن السنة ، ثم ذكر أسباباً جعلت علمَ الكلام غيرَ وافٍ بمقصوده ، ولا منيلاً لمطلوبه .

ثم ثنّىٰ ببسط القول في علم الفلسفة ، وبيَّن أنه لم يُسبق إلى التعمق فيها ، ومعرفة أغوارها وغوائلها ، وأفرد فصلاً عدَّد فيه أصنافهم ، وبيَّن أنهم جميعهم تشملهم سمة الكفر ، دُهريّين ، وطبيعيّين ، وإلـٰهيّين .

ثم ثلَّث بمذهب الباطنية الذين يزعمون وجوبَ التعليم ، وحصْرَه في الإمام المعصوم ، وبيَّن أنه قرأ كتبهم ، وجمع شبههم حتىٰ أُنكر عليه ذلك ؛ خشيةَ رواج أفكارهم .

وأورد العديد من شبهاتهم وردَّها ، وذكر أنه أفرد في بيان فساد مذهبهم عدداً من الكتب ، آخرها « القسطاس المستقيم » .

ثم ربَّع بذكر طريق الصوفية ، وبيَّن أنها تتم بعلم وعمل ، وأن أوَّلها : تخليةُ القلب عما سوى الله تعالىٰ ، ومفتاحها : استغراق القلب بالكلية بذكر الله تعالىٰ ، وآخرها : الترقي في الدرجات العلا .

وذكر رحلته من الانغماس في علائق الدنيا ، والإقبال علىٰ علومٍ غير نافعة في طريق الآخرة ، وشهود إقبال الطلبة عليه ، والإشارة إليه بالبنان ، حتىٰ هاجر إلىٰ مكة والقدس ، وحطَّ رحله

في الشام معتكفاً بمسجدها ، حتىٰ منَّ الله تعالىٰ عليه ، فتبين أن العلم والذوق والإيمان ثلاث درجات ليس وراءها إلا الجهل .

ثم ختم كتابه بالتنبيه إلىٰ أهمية النبوة وخاصيتها ، وبيَّن حقيقتها ، وعدَّد أنواع الشك في النبوة ، ودلَّل علىٰ إمكانها ، ووجودها ، وبين أن طريق اليقين بنبوة شخص معين : إمّا بالمشاهدة أو بالتواتر .

ثم بيَّن سبب عودته لنشر العلم بعد تحرير النية والقصد لله تعالىٰ ، فآثر أن يقطع خلوته بعد أن غدا عليماً بالأدواء ، قادراً علىٰ وصف الدواء .

وذكر في الخاتمة أسباب فتور الخلق وضعف إيمانهم بالنبوة ، وعلاج ذلك .

فللّٰه درُّه ، كيف أوجز في رسالة صغيرة مقاصد العلم الشريف !! وأهدىٰ إلىٰ مَن بعده خلاصة تجربته مخلصاً ، فحُقَّ لكتابه أن يُسمىٰ من الضلال منقذاً !!

وفي الختام : نود أن ننبه بأن دار المنهاج كما اعتنت عنايةً فائقةً بكتاب « إحياء علوم الدين » وأبرزته ولأول مرة في تلك الحلل المرضية ، والمظاهر الفنية بالتحقيق العلمي المميز . . فإنها أيضاً سلكت المنهج ذاته في كتابه هـٰذا ؛ بغية جذب المثقفين إلى النهل من هـٰذا المنهل المعين .

ونحن بهٰذا الصنيع نشير إلىٰ أنه يجب بذل الجهود في نشر كتب التراث ؛ لإخراجها بريئة من وصمة التصحيفات والتحريفات ، ولا سيما وقد طغت في هٰذا العصر الأخطاء الفجة ، والتحقيقات السمجة ؛ التي هي بالجهل أشبه ، وهي مصيبة تتعاظم إذا كان الكتاب المحقق شرعياً !!

والله المستعان

الناشر

ترجمة
الإمام المجدد، حجة الإسلام
محمد بن محمد بن محمد الغزالي
رضي الله عنه[1]
(٤٥٠ـ٥٠٥هـ)

هو الإمام : زين الدين ، أبو حامد ، محمد بن محمد بن محمد الطوسيّ الطابراني ، الشافعي ، حجة الإسلام الغزاليُّ .

ولد بطوس سنة (٤٥٠هـ) ، وتوفي أبوه وهو صغير ، وكان قد أوصىٰ به وبأخيه أحمد إلىٰ عمهما الذي ضاقت ذات يده ؛ فأدخلهما المدرسة يتعلَّمان ويتقوَّتان .

❀ ❀ ❀

قرأ الغزالي رضي الله عنه على الشيخ أحمد بن محمد الراذَكانيّ بطوس .

وسافر إلىٰ جرجان ؛ فقرأ على الشيخ أبي نصر الإسماعيلي ، وعلق عنه « التعليقة » .

---

(١) أهم مصادر الترجمة : « تاريخ دمشق » (٥٥/ ٢٠٠) ، « سير أعلام النبلاء » (١٩/ ٣٢٢) ، « طبقات الشافعية » للسبكي (٦/ ١٩١) ، « إتحاف السادة المتقين » (١/ ٦) ، وقد ترجمنا للإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ ترجمةً ضافيةً في طبعتنا لكتاب « إحياء علوم الدين » .

ثم قدم نيسابور ، ولازم الإمام أبا المعالي الجوينيَّ إمام الحرمين وتخرَّج به ، وعرض عليه باكورة مؤلفاته « المنخول » في أصول الفقه .

ولما توفي الجويني . . خرج إلى المعسكر ، وجالس الوزير نظام الملك ، ونال لديه القَبول ، وبرع في المناظرة حتىٰ ظهر اسمه في الآفاق ، فأُرسل إلىٰ بغداد للتدريس في المدرسة النظامية بها سنة (٤٨٤هـ) .

وفي أثناء تدريسه ببغداد تفرغ للتأليف ، وكثرت مؤلفاته ، وعلت شهرته حتىٰ أضحىٰ يُشار إليه بالبنان .

ثم جاءته السعادة الحقيقية ، فسلك طريق الزهد والتألُّه ، وخرج من جميع ما كان فيه ، وقصد الحج سنة (٤٨٨هـ) ، ورجع إلىٰ دمشق سنة (٤٨٩هـ) ، فأقام بها نحو عشر سنين ، أخذ نفسه فيها بالرياضة ، ووقف أوقاته علىٰ هداية الخلق ، وألَّفَ فيها كتابه النفيس « إحياء علوم الدين » .

ثم عاد إلىٰ طوس ، فاستدعاه فخر الملك إلىٰ نيسابور ، فدرَّس بها في المدرسة النظامية .

ثم ترك التدريس وعاد إلىٰ بيته موزِّعاً وقته بين تلاوة القرآن ، والتدريس والإفادة ، والنصح والإرشاد ، إلىٰ أن وافته المنية بطوس سنة (٥٠٥هـ) .

ترك الإمام الغزالي رضي الله عنه مؤلفاتٍ مشهورةً لم يسبق إليها ، من تأملها . . علم فضله وقدره في فنون العلم ، وقد قيل : (أُحصيَتْ كتب الغزالي التي صنفها ، ووزعت علىٰ عمره ؛ فخصت كل يوم أربع كراريس ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء) .

بعضُ مؤلفاتِهِ رضي الله عنه

ومن هٰذه المؤلفات النافعة : « إحياء علوم الدين » ، و« الاقتصاد في الاعتقاد » ، و« مقاصد الفلاسفة » ، و« تهافت الفلاسفة » ، و« المنقذ من الضلال » وهو كتابنا هٰذا الذي نتشرف بخدمته ، و« المنخول » ، و« المستصفىٰ » ، و« البسيط » ، و« الوسيط » ، و« الوجيز » ، و« الخلاصة » في الفقه[1] .

رضي الله عنه ، وأكرم مثواه ، ونفع بعلومه
إنه خير مسؤول

---

(١) وقد أكرم الله سبحانه وتعالىٰ دار المنهاج بخدمة بعض كتب هٰذا الإمام الجليل ؛ وأهمها : « إحياء علوم الدين » ، و« الاقتصاد في الاعتقاد » ، و« الخلاصة » و« أيها الولد » ، و« بداية الهداية » ، ونسأل الله أن يتمم نعمته علينا بخدمة جميع كتب هٰذا الإمام العبقري رضي الله عنه .

وصف النسخ الخطية

النسخة الأولىٰ : من مقتنيات **مكتبة شهيد علي** ، المحفوظة **بالمكتبة السليمانية** بإستنبول ، تحمل الرقم (١٧١٢) .

وهـٰذه النسخة ضمن **مجموع مؤلف من** (٧١) ورقة ، كتب في أوله : (مجموعة الرسائل فيها : « إلجام العوام عن علم الكلام » ، وكتاب « **المنقذ من الضلال والمفصح بالأحوال** » ، وكتاب « التفرقة بين الإسلام والزندقة » للإمام الغزالي) .

تبدأ من الورقة (٣٣) إلى الورقة (٥٧) ؛ فهي مؤلفة من (٢٥) ورقة .

عدد السطور في كل صفحة يتراوح بين (٢٢) إلىٰ (٢٧) سطراً ، وعدد الكلمات في كل سطر (٩) كلمات تقريباً .

في هامشها بعض الفروق والتصويبات ؛ مما يدلّ علىٰ أنها مقابلة مقروءة ، **وقد ميزت العناوين فيها** بنحو تطويل اللام في كلمة (القول) .

و**ناسخها** : عبد المجيد بن الفضل القَزّازيّ الطبريّ ، **وتاريخ النسخ** : (٧) شوال سنة (٥٠٩هـ) ، **وخطها** : نسخي جميل ، وتكاد تخلو من تحريف .

وقد رمزنا لها بـ (أ) .

❀ ❀ ❀

النسخة الثانية : تقع ضمن مجموع ، تبدأ من الورقة (٥٦) إلى الورقة (٧١) .

فهي مؤلفة من (١٦) ورقة .

عدد السطور في كل صفحة (٢٧) سطراً ، وعدد الكلمات في كل سطر (٩) كلمات تقريباً .

وقد ميزت الآيات والأحاديث بوضع خط فوق متونها .

وفي هامشها تصويبات ولحوقات مصححة ، ومطالب معنونة تدل علىٰ أنها مقروءة ، لـٰكن فيها قليل تحريف .

وميزت العناوين بخط أسود عريض ، ووضعت إشارات فوق نحو (فصل ، الصنف ، فإن قلت ، فأقول ، والجواب) ، والناسخ وتاريخ النسخ مجهولان .

ورمزنا لهـٰذه النسخة بـ (ب) .

❀ ❀ ❀

النسخة الثالثة : من محفوظات المتحف البريطاني بلندن ، قسم المجموعات الشرقية والمكتبة الهندية ، تحمل الرقم (١٨٧٤/أ) .

عدد أوراقها (٢٩) ورقة ، وعدد السطور في كل صفحة (١٩) سطراً ، وعدد الكلمات في كل سطر (٩) كلمات تقريباً ، وخطها نسخي جيد .

آخرها : (بلغ من ظهر الاثنين ، السابع من ربيع الآخر ، عام ثلاث وعشرين وثمان مئة) .

ورمزنا لها بـ (ج) .

❁ ❁ ❁

النسخة الرابعة : من مقتنيات **مركز الملك فيصل** بالرياض ، تحمل الرقم (١٤٣٧٣) **ضمن مجموع** .

عدد أوراقها (١٨) ورقة ، وعدد السطور في كل صفحة (٢١) سطراً ، وعدد الكلمات في كل سطر (١١) كلمة تقريباً ، **وفي هامشها بعض شروح للألفاظ الغريبة** .

وتاريخ النسخ : في القرن الحادي عشر الهجريّ ، **وخطها** : فارسي جميل .

ورمزنا لها بـ (د) .

❁ ❁ ❁

النسخة الخامسة : من مقتنيات **المكتبة الوطنية** بباريس ، تحمل الرقم (١٣٣١) ضمن مجموع ، منها نسخة في مركز الملك فيصل بالرياض .

تبدأ ضمن المجموع من الورقة (٢٥) إلى الورقة (٥٤) ؛ فهي مؤلفة من (٣٠) ورقة ، وفي هامشها بعض اللحوق والتصويبات وفروق النسخ ، مما يدل علىٰ أنها مقروءة ومقابلة .

عدد السطور في كل صفحة (١٧) سطراً ، وعدد الكلمات في كل سطر (٨) كلمات تقريباً ، وخطها : نسخيّ حسن ، وهي مخرومة الآخر قبيل السبب الرابع ، وتاريخ نسخها مجهول .

وقد رمزنا لها بـ (هـ) .

النسخة السادسة : من مقتنيات مكتبة فيض الله أفندي ، المحفوظة في المكتبة السليمانية بإستنبول ، تحمل الرقم (٢١٢٣) ضمن مجموع .

وهي ضمن مجموع حوىٰ رسائل للإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ .

عدد الأوراق (١٣) ورقة ، وعدد السطور في كل صفحة (٢٣) سطراً ، وعدد الكلمات في كل سطر (١٢) كلمة تقريباً ، وميزت الأحاديث فيها بخط فوقها ، والعناوين بخط عريض وكبير ، وعليها تملكات ومطالعات وخطها : نسخي جيد ، وفيه ضبط كثير .

وقد رمزنا لها بـ (و) .

النسخة السابعة : من مقتنيات **مكتبة حاجي بشير آغا** ، المحفوظة **بالمكتبة السليمانية** بإستنبول ، تحمل الرقم (٦٥٠) .

وهي ضمن مجموع مؤلف من نحو ثلاث مئة وستين ورقة ، ضم رسائل للإمام الغزالي وغيره رحمهم الله تعالىٰ .

تبدأ ضمن المجموع من الورقة (٢٤١) إلى الورقة (٢٥٨) ؛ فهي مؤلفة من (١٨) ورقة .

عدد السطور في كل صفحة (٢٥) سطراً ، وعدد الكلمات في كل سطر(١٠) كلمات تقريباً ، **وخطها** : نسخي جيد .

وقد رمزنا لها بـ(ز) .

منهج العمل في الكتاب

اعتمدنا في إخراج هٰذا الكتاب القيم المبارك علىٰ سبع نسخ خطية قيمة ، واتبعنا الخطوات الآتية :

ـ نسخ الكتاب ، ومعارضته علىٰ أصوله الخطية ، وإثبات الفروق التي لها أهمية ، ولا بد من الإشارة إلىٰ نسختين مهمتين من الأصول الخطية : الأولىٰ قريبة عهد من وفاة المؤلف ، والأخرىٰ تتابع عليها أهل العلم بالنظر فيها والملك لها ، والقصد والهدف أن يخرج الكتاب أقرب ما يكون إلىٰ مراد مؤلفه إن شاء الله تعالىٰ .

ـ تم اختيار عنوان الكتاب من النسخة الأقدم ؛ وهو : « المنقذ من الضلال والمفصح بالأحوال » ، مع العلم أن النسخ (ج ، هـ ، و) جاء العنوان فيها : « المنقذ من الضلال والمفصح عن الأحوال » ، والأمر سهل ، والعبارتان متقاربتان .

ـ وضع الآيات القرآنية بالرسم العثماني ؛ تحاشياً من الخطأ في رسمها أو ضبطها، برواية حفص عن عاصم رحمهما الله تعالىٰ .

ـ تخريج الأحاديث والآثار من مصادرها الأصلية مع الإشارة إلىٰ راويها ومخرِّجها .

ـ ترصيع الكتاب بعلامات الترقيم بحسب المنهج العلمي

المتبع في المركز العلمي لدار المنهاج .

ـ ضبط الكتاب كاملاً بالحركات الإعرابية ؛ ليسهل فهمه على الوجه اللائق .

ـ شرح بعض الألفاظ الغريبة والمشكلة .

ـ تقسيم نص الكتاب إلىٰ مقاطع ، وإضافة عنوانات مناسبة لهـٰذه المقاطع علىٰ جوانبه ؛ ليسهل تناوله .

ـ ترجمة موجزة للمؤلف حجة الإسلام الغزالي رحمه الله ، ومن أراد التوسع . . فلينظر ترجمته في كتاب « إحياء علوم الدين » ، طبعة دار المنهاج ؛ فهي جامعة ونافعة .

وأخيراً : فإننا لا ندعي الكمال ، وإنما نطمع أن نكون قد وُفِّقْنا في خدمة هـٰذا الكتاب المبارك ، وما توفيقي إلا بالله .

راجين من القارىء الكريم غض الطرف عما سها عنه الطرف ، والتماس العذر لإخوانه ، وأن يعاملنا بعين الرضا التي تكلّ عن تتبّع العيوب .

والله وحده المسؤول : أن يكرمنا بالقبول ، وأن يرزقنا شفاعة الرسول ، صلى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

اللجنة العلمية
بمركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي

٢٨ جمادى الآخرة ١٤٣٣هـ
١٩ مايو ـ أيار ٢٠١٢م

صور المخطوطات المستعان بها في الكتاب

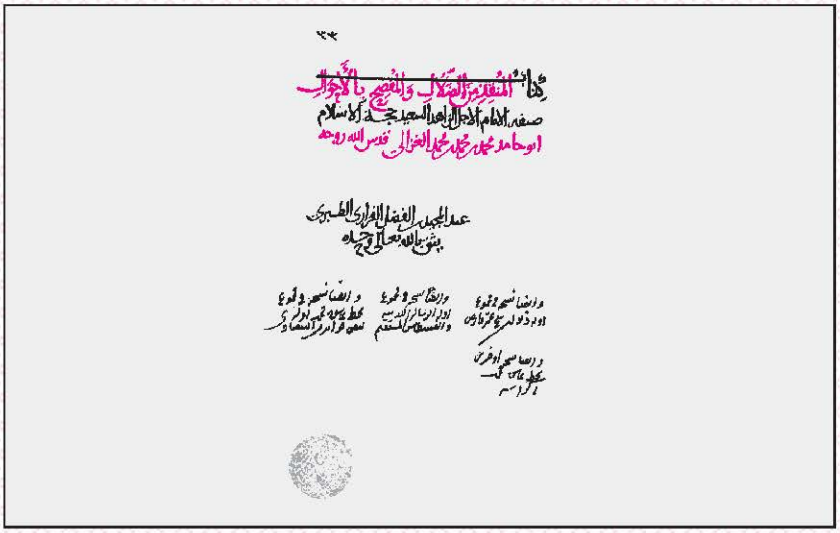

راموز ورقة العنوان للنسخة (أ)

راموز الورقة الأولى للنسخة (أ)

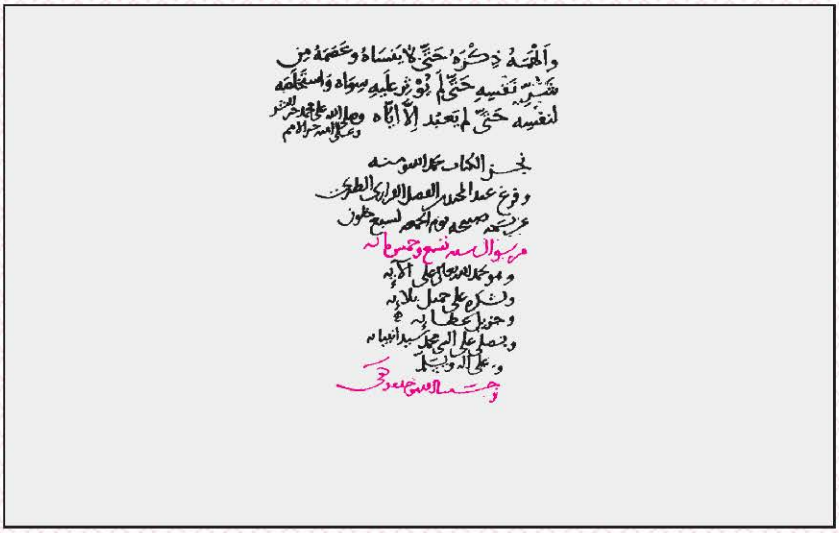

رموز الورقة الأخيرة للنسخة (أ)

رموز ورقة العنوان للنسخة (ب)

رموز الورقة الأولى للنسخة (ب)

رموز الورقة الأخيرة للنسخة (ب)

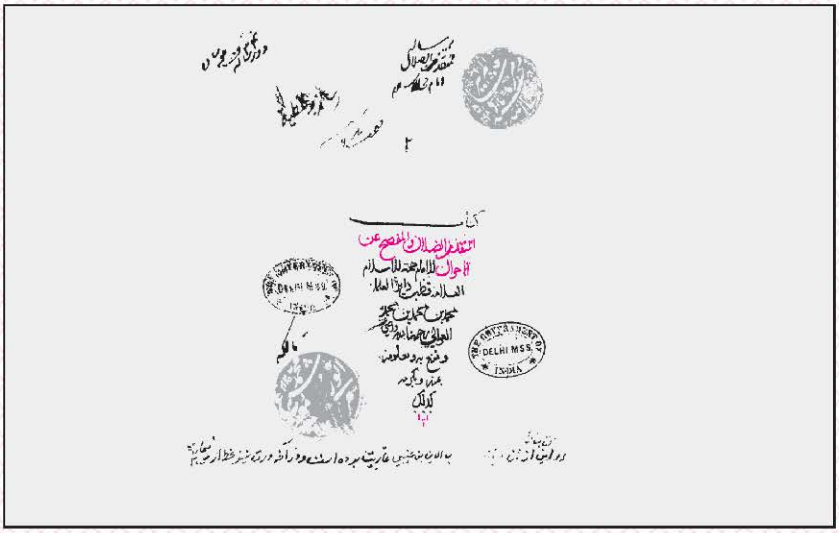

راموز ورقة العنوان للنسخة (ج)

راموز الورقة الأولى للنسخة (ج)

رموز الورقة الأخيرة للنسخة (ج)

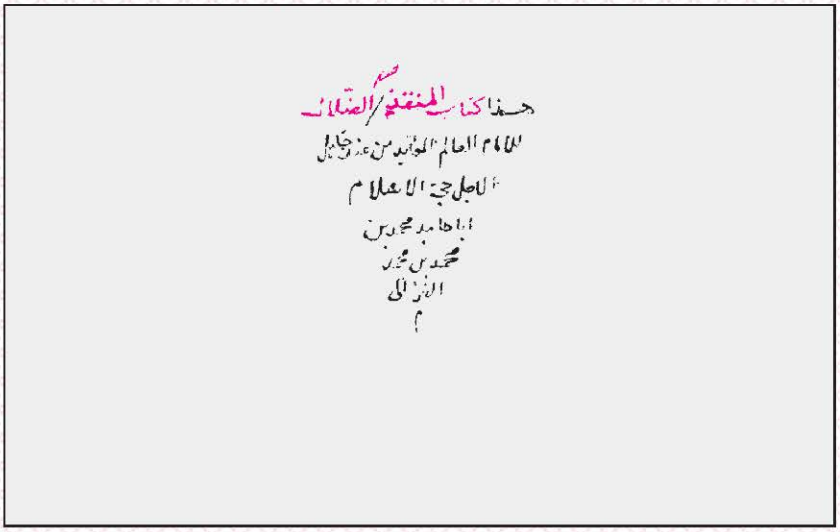

رموز ورقة العنوان للنسخة (د)

راموز الورقة الأولى للنسخة (د)

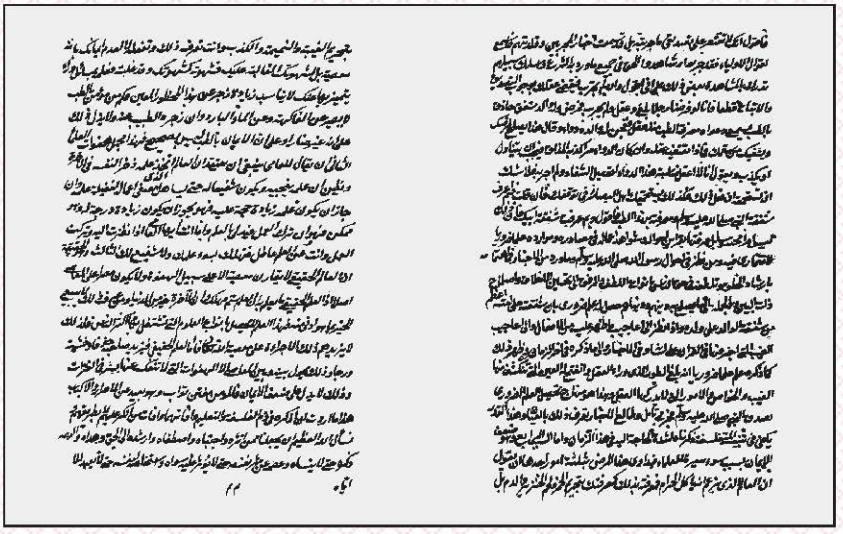

راموز الورقة الأخيرة للنسخة (د)

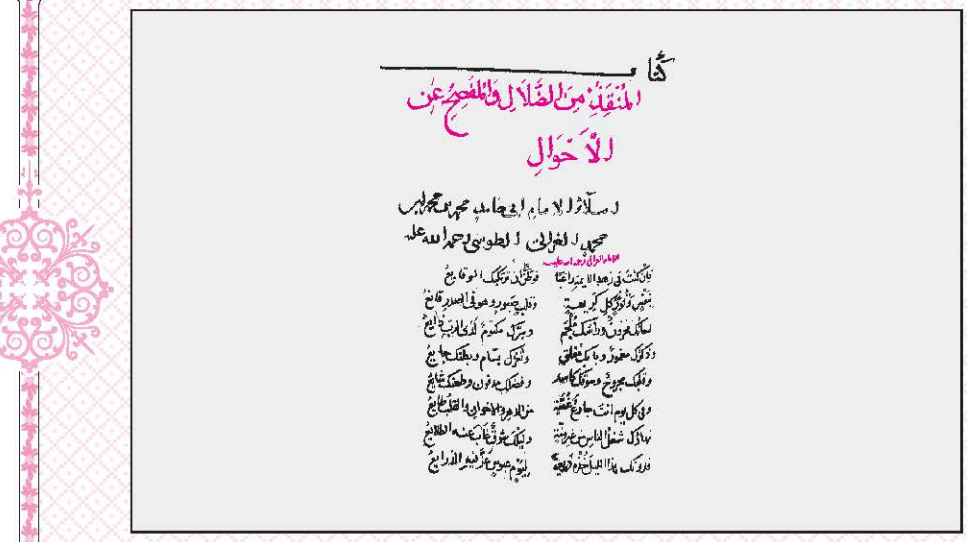

كتاب

المنقذ من الضلال والمفصح عن الأحوال

لمصنفه الإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي

محيي الغزالي الطوسي رحمه الله عليه

فأنت في زهدك الأيدي رعاعها ... وفي تنزلك الأوساط والناس

يشين ذا ورع كل كريهة ... وقلبه صورة وهو في الصدر قانع

لسائل عرض ذل فتك مجرم ... وسر مكتوم لذي ملاذ ذائع

وذلك مقرون وباك مخلق ... وتبكي بسام وبطنك جائع

وقلبك مجروح وعزتك باسمة ... وفضلك مدفون وذكرك شائع

وفي كل يوم أنت جائع غفلة ... من الدهر والأيام والقلب طامع

تهاذك شغل الدارين غرة ... وليلك شوق بات عنه الطلائع

فلو كنت هذا الليل جزءا لليلة ... لهيم جميع الأنبياء الذرائع

رموز ورقة العنوان للنسخة (هـ)

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

قال الإمام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي رحمه الله

الحمد لله الذي يفتتح بحمده كل رسالة ومقال والصلاة على محمد صاحب النبوة والرسالة وعلى آله وأصحابه الهادين من الضلال وبعد إما بعد فقد ماتني أيها الأخ في الدين أن أثبت إليك غاية العلوم وأسرارها ونهاية الغرض من أصعبها وأعلاها وأجلها وأتكلم على ما تأسيته على استخلاصه من الحق من بين اضطراب الفرق مع تباين المسالك والطرق وما أحوجك إليه من الارتياح من حضيض التقليد إلى ينابيع الاستبصار وما استفدته أولا من علم الكلام وما اجتنيته ثانيا من طرق أهل التعليم المقاصرين لدرك الحق على تقليد الإمام وما ادخرته ثالثا من طرق أهل التقشف وما ادخرته آخرا من طرق أهل التصوف وما انطوى في تضاعيفه تفتيش عن أقاويل الخلق من أصناف الحق وما جرى في مسلك العلم بخواطر مع كثرة قواطعه وما دعا إلى نعاوده نيسابور لقد طال المدة فاستدبت لا جابتك إلى طلبتك مستعينا بالله تعالى ومتوكلا عليه ومستوفيا منه ملتجئا إليه واعلموا أهل الله ارشادكم والأني الحق قيادكم أن الخلاف

الخلاف الأديان

الخلق الأديان والملل في اختلاف الأمة في المذاهب على أكثر من الفرق وتباين الطرق حتى غرق عرق فيه الأكثرون وما نجا منه إلا الأقلون وكل فريق يزعم أنه الناجي وكل حزب بالذي لديهم فرحون وهو الذي وعدنا سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم الفادي في الصدق حيث قال ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة الناجية منها واحدة فقد فاق ما وعد الأنبياء والرسل في هذا الزمان غلبة شيطان منذ أدرك البلوغ قبل بلوغ العشرين إلى الآن وذا ما أقول الصبي على الخمسين أقبح مجة فما الحيلة العجوز والعرض عرضة خوض الحسو ولا خوض الجبان الحذور وأنا أشتغل في كل مطلب وأتجشم على كل مشكلة وأقتحم كل ورطة وأتقحم من عقيدة وكل فرقة واستكشف أسرار كل طائفة لأميز بين محق ومبطل وبين متحرج ومتساهل وبين مبتدع لا أعارض بالطيش الأول لعلي أن أظفر على الحقيقة بالطلب ولا أطاعن بالأول وأنا أعلم حاصل ظاهرية ولا فلسفيا إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته ولا متكلما إلا وأجهد في الاطلاع على غاية طلابه وكما دأبه ولا ضوفيا إلا وأحرص على الصعود في سر صوفيته ولا متعبدا إلا وأريد ما قصده إليه حاصل عبادته ولا زنديقا معطلا إلا وأتفحص وراء

رموز الورقة الأولى للنسخة (هـ)

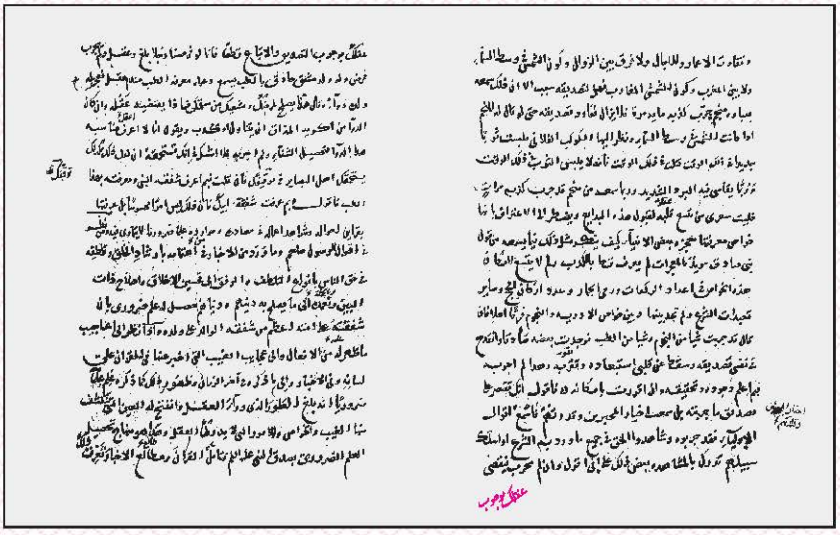

راموز الورقة الأخيرة للنسخة (هـ)

راموز ورقة العنوان للنسخة (و)

راموز الورقة الأولى للنسخة (و)

راموز الورقة الأخيرة للنسخة (و)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي تحمده كل شيء وتسبحه وتخافه والصلاة على محمد المصطفى المجتبى
والسلام على آله وأصحابه الهادين من الضلالة أما بعد فقد سألني
أيها الإمام في الدين أن أبين لك غاية الجهد أسرارها وأبين غاية الأمر
وأخبارها وأحكي لك ما قاسيته واستخدمه من الحق من أمر الدين
تمامي الشاكين في الحق وما استجزت عليه من الاقتناع من حقيقة التقليد
المتبايين لا يصادرها استدل شاهدا من علم الكلام وما احتويت بنا من
حقوق أهل النظر إذا حبرت الرأي الحق على تقليد إمام وما أذكر لنا شيئا
من حقوق التقليد وما أذكر لنا من طرق الحصول وما أتحدث بي
فما جنيت فتسبحي عن أقاويل الخلق من تباب الحق وما بين في من الحق
بغداد بع كرة الظلمة وما دعاني إلى مساءلتي بينهما يوم كرة البحر طول الحق
فاعذبت إلى جانبك إلى مطلبك بعد الوقوف على حقوق وتحقيق لحقيقة
الاعتقاد وسلوك كلها عليه وسعى نفاسته وتحبيها إليه علم أحسن الله أسارتكم
وأزال العمى قيادكم أن اختلاف الخلق في الأديان والملل ثم اختلاف الأمة
في المذاهب على كثرة الفرق وتباين الطرق حتى عبق فرق إلى أكثر من ثلاثين
لا ناجون وكل فرقة بغي إلى هذا الناجي يوم القيمة وكل حزب بما لديهم فرحون
وهو الفيصل وهذا سيد الموسيين حاولت الأمة عليه وحد الصادق المصدوق
حيث قال سيتفرق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة الناجية منهم واحدة فقط
كان ما وكل ذلك يكون ولم أنظر في اعتقادات شبابي نظر الحقيقة إلى بلغ
الصرت إلى أن حقق أنا أن البيت على الحقيقة أقيم بحق هذا الجواهر
والخوض غرت بحوض لبيت ولا تخوض أبيات الوجود وأنو تحلي بكل مقام
والتحق على كل مشكلة والتحم كل ورطة وأقتحم عن عبده كل غرة وأستشف
لبعضها ظهب كل شائبة لا يبين محق وبطل وتمتاز وبيتها الغاية راجيا
الله وحده أن أطلع على ظاهرها وأدري أن أعلم حاصل خلصاتها
ولا فلسفتها إذا تصلها فوق هذه لنفسه ولا متكلما إذا اجتهدي الأعلام

على غاية كلامه وجاد لنا ولا حصوفيا أو أعرض على العقود على حرصه
ولا متعبدا إذا ترصد إلى ما يرجع إليه حاصل عباداته ولا زندقيا معطلا إلا
الجسر ولا والقيت إلى جانب جرأة تفيد تعطيله وزندقته وقد كان الفحص
الأمر كحقائق الأمور ذاتها وكذلك من أقل أمري ويعاب عرب غزوة وفوز
عنوانه لما نصحاني حقيقي لا بالاعتبار وحيث حقيقي الملحة في رابطة التقليد
وأنكرت على الخلائق الهوية على قرب عهدي بسن الشباب إلا وأيت صبيان
النصارى لا يكون لهم تعلم إلا التنصر وصبيان اليهود لا يعرفون إلا على اليهودية
وصبيان أهل الإسلام لا تعلم لهم إلا على الإسلام وسمعت الحديث المروي عن خلق
الله على الفطرة فما أبوه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه
وتقرأ ما وجدنا ذكر كل إلى الطلب حقيقة الفطرة الأصلية وحقيقة
اعتقاد الفاطرية حقيقة الفطرة ولا استأذنت ولا تعين بين هذه التقليد
ولا إلى الحقيقة وفي تمييز الحق جماعتين إلى حاصل اختلافات فتنت في شيء أنا
أنا سالك إلى العلم بخلاف الأمور تلك من طلب حقيقة العلم بأجلى تظهر إلى العلم
الحقيقي هو الذي يكشف فيه المعلوم أكثر تمام على معنى ترتيب ولا يقع في
إمكان الغلط والوهم ولا شيء أنتم وذلك الاعتقادات من الظنون يقولون
متاعنا اليقين مقاربة لو قلت بأنها ربما لنا من تقليد الجهر بها
والعمل بها ما لم يورث ذلك شكا وامتناعا فإني إذا علمت أن الصلوة
أكثر من الثلاثة فلو قال قائل إن الثلاثة أكثر وقيل إنها أقل هذا العمل فيما
وقد وشاهدت وكل من لم أعلم بسببه معرفتي ولم يعلم بعلمه من الأمور
من كيد يقدر عليه فأما الذي علمت وقام علمت أن الكل أعلم على
هذا الوجه ولا ارتشت صفا الذي من أيقنت فوعلم لا شك به ولا المانع
وكل علم لا ما من معه فليس بعلم يقتضي الجواب في الحال الشك على وجه
ثم فتشت عن علومي فوجدت الذي عاطلا عن علم موصوف بهذه الصفة إلا
الحسابيات والهندسيات فقلت لأنه بثقة حصول الناس لا يحصل في اقتباس
الشكوك إلا من الإلهيات وجهل الحسابيات والهندسيات ولا يدخل كلها

رموز الورقة الأولى للنسخة (ز)

لا يبطل العاصي إذا التفات إليه وتركت العمل وأنت عن العلم عاطل فتهلك بصيرة
ملكه ولا تجيع لك والثالث وهو الحقيقة أن العالم لا يقارف معصية إلا على سبيل
الهفوة ولا يكون مصرا على المعاصي إصرارا إذا العلم الحقيقي ما يعرفه أن المعصية
سم مهلكة في الآخرة خير من الدنيا ومن عرف ذلك لا يجيع الحرص على ما يرغب
وهذا العلم الحاصل بأنواع العلوم التي يشتغل بها أكثر الناس بل لا يزيد
ذلك العلم إلا جرأة على معصية الله فأما العلم الحقيقي فيزيد صاحبه خشية
وخوفا وذلك حائل بينه وبين المعاصي إلا الهفوات التي لا ينفك عنها البشر
في الغرائز وذلك دليل على ضعف الإيمان فالمؤمن مفتن توابي هو يبعد
عن الإصرار إلا كبائر فهذا ما أردت أن أكدره في ذم الفلسفة والعلم
وأنا ذا وأنات من أنكر علينا لم يطرقه ونسأل الله العلم أن يجعله من
آثره واجتباه وأرشده إلى الحق وهداه والهمه ذكره حتى لا ينساه وعصمه
من شر نفسه حتى لا يؤثر عليه هواه واستخلصه لنفسه حتى لا يعبد إلا إياه

رموز الورقة الأخيرة للنسخة (ز)

المُنقِذُ مِنَ الضَّلَال

وَالمفصِحُ بِالأَحوال

تأليف

الإمَامِ المُجَدِّدِ، حُجَّةِ الإسْلَامِ وَالمُسْلِمِينَ

زَيْنِ الدِّيْنِ، أَبِي حَامِدْ

مُحَمَّدِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ الغَزَالِيّ

الطُّوسِيِّ الطَّابَرَانِيِّ الشَّافِعِيّ

رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

(٤٥٠-٥٠٥هـ)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

توكّلت على الحيّ الّذي لا يموت

قال الإمام الأجلّ الزّاهد ، زين الدين ، حجّة الإسلام
أبو حامد محمّد بن محمّد بن محمّد الغزالي

خطبة الكتاب

الحمدُ للهِ الذي بحمدِهِ يُفتتَحُ كلُّ رسالةٍ ومقالةٍ ، والصلاةُ علىٰ محمَّدٍ المصطفىٰ صاحبِ النبوَّةِ والرسالةِ ، وعلىٰ آله وأصحابِهِ الهادينَ مِنَ الضلالةِ .

أما بعد :

سبب تأليف الكتاب

فقدْ سألتَني ـ أيُّها الأخُ في الدينِ ـ أنْ أبُثَّ إليكَ غايةَ العلومِ وأسرارَها ، وغائلةَ المذاهبِ وأغوارَها ، وأحكيَ لكَ ما قاسيتُهُ في ٱستخلاصِ الحقِّ مِنْ بينِ ٱضطرابِ الفِرَقِ ، معَ تباينِ المسالكِ والطرُقِ ، وما ٱستجرأتُ عليهِ مِنَ الِارتفاعِ عنْ حضيضِ التقليدِ إلىٰ يَفاعِ الِاستبصارِ[1] .

وما ٱستفدْتُهُ أوّلاً مِنْ علمِ الكلامِ ، وما ٱجتويتُهُ ثانياً مِنْ طُرُقِ

(١) اليفاع : المرتفع من كل شيء .

أهلِ التعليمِ القاصرينَ لدَرْكِ الحقِّ علىٰ تقليدِ الإمامِ[1] ، وما أزدريتُهُ ثالثاً مِنْ طرقِ التفلْسُفِ ، وما أرتضيتُهُ آخراً مِنْ طريقةِ التصوُّفِ .

وما تنخَّلَ لي في تضاعيفِ تفتيشي عنْ أقاويلِ الخَلقِ مِنْ لُبابِ الحقِّ ، وما صرفَني عنْ نشْرِ العلمِ ببغدادَ معَ كثرةِ الطلبةِ ، وما دعاني إلىٰ معاودتِهِ بنَيْسابورَ بعدَ طولِ المدَّةِ .

❀ ❀ ❀

جواب المؤلف لمن سأله

فابتدرْتُ لإجابتِكَ إلىٰ مطلبِكَ بعدَ الوقوفِ علىٰ صدْقِ رغبتِكَ ، وقلتُ مستعيناً باللهِ ومتوكِّلاً عليهِ ، ومُسْتَوْفِقاً منْهُ[2] ، وملتجئاً إليهِ :

الاختلاف في الأديان والمذاهب بحر عميق

إعلموا ـ أحسنَ اللهُ إرشادكُمْ ، وألانَ للحقِّ قيادكُمْ ـ أنَّ اختلافَ الخلقِ في الأديانِ والمِلَلِ ، ثُمَّ اختلافَ الأمَّةِ في المذاهبِ علىٰ كثرةِ الفِرَقِ ، وتبايُنِ الطُّرُقِ . . بحرٌ عميقٌ غرِقَ فيهِ الأكثرونَ ، وما نجا منْهُ إلاَّ الأقلُّونَ ، وكلُّ فريقٍ يزعُمُ أنَّهُ الناجي ، وكلُّ حزبٍ بما لدَيهِمْ فَرِحونَ .

وهُوَ الذي وعدَنا بهِ سيِّدُ المرسلينَ صلواتُ اللهِ عليهِ ـ وهُوَ الصادقُ المصدوقُ ـ حيثُ قالَ : « سَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي نَيِّفاً وَسَبْعِينَ

---

(١) اجتوى الشيء : أنِفَ منه وبغضه .

(٢) يقال : استوفقْت الله ؛ أي : سألته التوفيق .

فِرْقَةً ، اَلنَّاجِيَةُ مِنْهَا وَاحِدَةٌ »[1] ، وقدْ كانَ ما وعدَ أنْ يكونَ .

❁ ❁ ❁

بذل الجهد وتمحيص الأفكار لدرك الحقيقة

ولمْ أزلْ في عُنْفُوانِ شبابي ، ورَيْعانِ عُمري منذُ راهقتُ البلوغَ قبلَ بلوغِ العشرينَ إلى الآنَ ـ وقدْ أنافَ السنُّ على الخمسينَ ـ أتقحَّمُ لُجَّةَ هٰذا البحرِ العميقِ ، وأخوضُ غَمْرتَهُ خوضَ الجَسُورِ ، لا خوضَ الجبانِ الحَذُورِ ، وأتوغَّلُ في كلِّ مُظْلِمةٍ ، وأتهجَّمُ علىٰ كلِّ مشكلةٍ ، وأقتحمُ كلَّ ورطةٍ ، وأتفحَّصُ عنْ عقيدةِ كلِّ فرقةٍ .

وأستكشِفُ أسرارَ مذهبِ كلِّ طائفةٍ ؛ لأَميزَ بينَ محقٍّ ومبطِلٍ ، ومتسنِّنٍ ومبتدِعٍ .

لا أغادرُ باطنياً إلاَّ وأحبُّ أنْ أطَّلعَ علىٰ بِطانتِهِ ، ولا ظاهرياً إلاَّ وأريدُ أنْ أعلمَ حاصلَ ظِهارتِهِ[2] .

ولا فلسفياً إلاَّ وأقصِدُ الوقوفَ علىٰ كُنْهِ فلسفتِهِ ، ولا متكلِّماً إلاَّ وأجتهدُ في الاِطِّلاعِ علىٰ غايةِ كلامِهِ ومجادلتِهِ .

ولا صوفياً إلاَّ وأحرصُ على العثورِ علىٰ سِرِّ صفوتِهِ ، ولا متعبِّداً إلاَّ وأترصَّدُ ما رجعَ إليهِ حاصلُ عبادتِهِ .

---

(١) رواه أبو داوود (٤٥٩٦) ، والترمذي (٢٦٤٠) ، وابن ماجه (٣٩٩١) بنحوه عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) استعار بِطانة الثوب وظِهارته للدلالة علىٰ ما أُبطن من مذاهب المبتدعة ، أو جُمِد فيه على الظاهر .

ولا زِنديقاً مُعَطِّلاً إلاَّ وأتجسَّسُ وراءَهُ ؛ للتنبُّهِ لأسبابِ جُرأتِهِ في تعطيلِهِ وزندَقَتِهِ .

نبوغ الإمام الغزالي وانحلال رابطة التقليد في سن الصبا

وقدْ كانَ التعطُّشُ إلىٰ درْكِ حقائقِ الأمورِ دأْبي وديدَني ؛ مِنْ أوَّلِ أمري ورَيْعانِ عُمري غريزةً وفطرةً مِنَ اللهِ تعالىٰ وضعَها في جِبِلَّتي ، لا بٱختياري وحِيلتي .

حتَّى ٱنحلَّتْ عنِّي رابطةُ التقليدِ ، وٱنكسرتْ عليَّ العقائدُ الموروثةُ علىٰ قربِ عهْدٍ بسنِّ الصِّبا ؛ إذْ رأيتُ صبيانَ النصارىٰ لا يكونُ لهُمْ نشوءٌ إلاَّ على التنصُّرِ ، وصبيانَ اليهودِ لا نشوءَ لهُمْ إلاَّ على التهوُّدِ ، وصبيانَ المسلمينَ لا نشوءَ لهُمْ إلاَّ على الإسلامِ ، وسمعتُ الحديثَ المرويَّ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حيثُ قالَ : « كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى ٱلْفِطْرَةِ ؛ فَأَبَوَاهُ يُهوِّدَانِهِ ، وَيُنَصِّرَانِهِ ، وَيُمَجِّسَانِهِ »[1] .

تحرك الباطن لطلب الحق

فتحرَّكَ باطني إلىٰ طلبِ حقيقةِ الفطرةِ الأصليَّةِ ، وحقيقةِ العقائدِ العارضةِ بتقليدِ الوالدِينَ والأُسْتاذِينَ ، والتمييزِ بينَ هٰذهِ التقليداتِ ؛ وأوائلُها تلقيناتٌ ، وفي تمييزِ الحقِّ منْها عنِ الباطلِ ٱختلافاتٌ .

---

(١) رواه البخاري (١٣٨٥) ، ومسلم (٢٥/٢٦٥٨) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

فقلتُ في نفسي أوّلاً : إنَّما مطلوبي العلمُ بحقائقِ الأمورِ ، فلا بدَّ مِنْ طلبِ حقيقةِ العلمِ ما هِيَ ؟

حقيقة العلم اليقيني وبِمَ يكون الأمان من الخطأ

فظهرَ لي : أنَّ العلمَ اليقينيَّ : هُوَ الذي ينكشفُ فيهِ المعلومُ انكشافاً لا يبقىٰ معَهُ ريبٌ ، ولا يقارنُهُ إمكانُ الغلطِ والوهْمِ ، ولا يتَّسعُ القلبُ لتقريرِ ذلكَ .

بلِ الأمانُ مِنَ الخطأِ : ينبغي أنْ يكونَ مقارناً لليقينِ مقارنةً لوْ تحدَّىٰ بإظهارِ بطلانِهِ مثلاً مَنْ يَقْلِبُ الحجرَ ذهباً والعصا ثعباناً . . لمْ يورثْ ذلكَ شكّاً وإمكاناً .

ضرب مثلٍ للعلم اليقيني

فإنِّي إذا علمتُ أنَّ العشرةَ أكثرُ مِنَ الثلاثةِ ؛ فلوْ قالَ لي قائلٌ : لا ؛ بلِ الثلاثةُ أكثرُ مِنَ العشرةِ ؛ بدليلِ أنِّي أقلِبُ هـٰذه العصا ثعباناً ، وقَلَبَها ، وشاهدتُ ذلكَ منْهُ . . لمْ أشُكَّ بسببِهِ في معرفتي ، ولمْ يحصلْ لي منْهُ إلاَّ التعجُّبُ مِنْ كيفيَّةِ قدرتِهِ عليهِ ، فأمَّا الشكُّ فيما علمتُهُ . . فلا .

كل علم لا ثقة به ولا أمان معه فليس بعلم يقيني

ثُمَّ علمتُ أنَّ كلَّ ما لا أعلمُهُ علىٰ هـٰذا الوجهِ ، ولا أتيقَّنُهُ هـٰذا النوعَ مِنَ اليقينِ . . فهُوَ علمٌ لا ثقةَ بِهِ ، ولا أمانَ معَهُ ، وكلُّ علمٍ لا أمانَ معَهُ . . فليسَ بعلمٍ يقينيٍّ .

القول في مداخل السفسطة وجحد العلوم (١)

إحكام الحسيات والضروريات لازم للوثوق بالمحسوسات

ثُمَّ فتَّشْتُ عنْ علومي ، فوجدتُ نفسي عاطلةً عنْ علمٍ موصوفٍ بهٰذهِ الصفةِ إلاَّ في الحسِّيَّاتِ والضروريَّاتِ .

الأمان من الغلط في الضروريات هل هو من قِبَل التقليد؟

فقلتُ : الآنَ بعدَ حصولِ اليأسِ لا مطمعَ في الإقتباسِ للمشكلاتِ إلاَّ مِنَ الجليَّاتِ ؛ وهِيَ الحسِّيَّاتُ والضروريَّاتُ ، فلا بدَّ مِنْ إحكامِها أوَّلاً ؛ لأتبيَّنَ أنَّ ثقتي بالمحسوساتِ ، وأماني مِنَ الغلطِ في الضروريَّاتِ . . أَهُوَ مِنْ جنسِ أماني الذي كانَ مِنْ قبلُ في التقليداتِ ، ومِنْ جنسِ أمانِ أكثرِ الخلقِ في النظريَّاتِ ، أمْ هُوَ أمانٌ محقَّقٌ لا غَورَ فيهِ ، ولا غائلةَ لهُ ؟

❀ ❀ ❀

التشكيك في المحسوسات

فأقبلتُ بجِدٍّ بليغٍ أتأمَّلُ في المحسوساتِ والضروريَّاتِ ، وأنظرُ : هلْ يمكنُني أنْ أُشكِّكَ نفسي فيها ؟

❀ ❀ ❀

بعد التشكيك لم تأمن نفس الإمام الغزالي من الشك في المحسوسات

فأنتهىٰ بي طولُ التشكيكِ إلىٰ أنْ لمْ تسمحْ نفسي بتسليمِ الأمانِ في المحسوساتِ أيضاً ، وأخذَ يتَّسعُ الشكُّ فيها ، وتقولُ : مِنْ

---

(١) السفسطة : مذهب يوناني فلسفي يقوم علىٰ نفي الحقائق ، أو الشك فيها ، أو كونها تابعة للاعتقاد .

أينَ الثقةُ بالمحسوسات وأقواها حاسَّةُ البصرِ ؛ وهِيَ تنظرُ إلى الظلِّ فتراهُ واقفاً غيرَ متحرِّكٍ ، وتحكمُ بنفيِ الحركةِ ، ثُمَّ بالتجربةِ والمشاهدةِ بعدَ ساعةٍ تعرفُ أنَّهُ متحرِّكٌ ، وأنَّهُ لمْ يتحرَّك دَفعةً بغتةً ؛ بلْ على التدريجِ ذرَّةً ذرَّةً ، حتَّىٰ لمْ يكنْ لهُ حالةُ وقوفٍ ؟!

حاسة البصر مثال للشك وبيان دليل ذلك

وتنظرُ إلى الكوكبِ فتراهُ صغيراً في مقدارِ دينارٍ ، ثُمَّ الأدلَّةُ الهندسيَّةُ تدُلُّ علىٰ أنَّهُ أكبرُ مِنَ الأرضِ في المقدارِ ؟!

هـٰذا وأمثالُهُ مِنَ المحسوساتِ يحكُمُ فيها حاكمُ الحسِّ بأحكامِهِ ، ويكذِّبُهُ حاكمُ العقلِ والتجربةِ تكذيباً لا سبيلَ إلىٰ مدافعتِهِ .

❁ ❁ ❁

افتراض ألا ثقة إلا بالعقليات بعد إبطال الثقة بالمحسوسات

فقلتُ : قدْ بطلتِ الثقةُ بالمحسوساتِ أيضاً ، فلعلَّهُ لا ثقةَ إلاَّ بالعقليَّاتِ التي هِيَ مِنَ الأوَّليَّاتِ ؛ كقولِنا : العشرةُ أكثرُ مِنَ الثلاثةِ ، والنفيُ والإثباتُ لا يجتمعانِ في الشيءِ الواحدِ في حالةٍ واحدةٍ ، والشيءُ الواحدُ لا يكونُ حادثاً قديماً ، موجوداً معدوماً ، واجباً مُحالاً .

❁ ❁ ❁

تشكيك المحسوسات بالعقليات

فقالتِ المحسوساتُ : بِمَ تأمنُ أنْ تكونَ ثقتُكَ بالعقليَّاتِ كثقتِكَ بالمحسوساتِ وقدْ كنتَ واثقاً بي ، فجاءَ حاكمُ العقلِ

فكذَّبَني ، ولولا حاكمُ العقلِ . . لكنتَ تستمرُّ علىٰ تصديقي ؟

فلعلَّ وراءَ إدراكِ العقلِ حاكماً آخرَ ، إذا تجلَّىٰ . . كذَّبَ العقلَ في حكمِهِ ؛ كما تجلَّىٰ حاكمُ العقلِ فكذَّبَ الحسَّ في حكمِهِ ، وعدمُ تجلِّي ذلكَ الإدراكِ لا يدُلُّ على ٱستحالتِهِ !

افتراض وجود حاكم يبطل العمل بالمعقولات

❁ ❁ ❁

فتوقَّفتِ النفسُ في جوابِ ذلكَ قليلاً ، وأيَّدتْ إشكالَها بالمنام ، وقالتْ : أَمَا تراكَ تعتقدُ في النومِ أموراً ، وتتخيَّلُ أحوالاً ، وتعتقدُ لها ثَباتاً وٱستقراراً ، ولا تشُكُّ في تلكَ الحالةِ فيها ، ثُمَّ تستيقظُ فتعلمُ أنَّهُ لمْ يكنْ لجميعِ متخيَّلاتِكَ ومعتقداتِكَ أصلٌ وطائلٌ ؟

شك النفوس في المعقولات

❁ ❁ ❁

فبِمَ تأمنُ أنْ يكونَ جميعُ ما تعتقدُهُ في يقظتِكَ بحسٍّ أوْ عقلٍ هُوَ حقٌّ بالإضافةِ إلىٰ حالتِكَ التي أنتَ فيها ؟

افتراض أن ما في اليقظة من حسي وعقلي مثل ما في النوم خيالي لا وجود له

❁ ❁ ❁

لٰكنْ يمكنُ أنْ تطرأَ عليكَ حالةٌ تكونُ نسبتُها إلىٰ يقظتِكَ كنسبةِ يقظتِكَ إلىٰ منامِكَ ، وتكونُ يقظتُكَ نوماً بالإضافةِ إليها ؛ فإذا وردَتْ تلكَ الحالةُ . . تيقَّنتَ أنَّ جميعَ ما توهَّمْتَ بعقلِكَ خيالاتٌ لا حاصلَ لها .

مناقشة الفرضية بوضع الاحتمالات

ولعلَّ تلكَ الحالةَ ما يدَّعيها الصوفيَّةُ أنَّها حالتُهُمْ ؛ إذْ يزعُمون

أنَّهُمْ يشاهدونَ في أحوالِهِمْ التي لهُمْ إذا غاصُوا في أنفسِهِمْ ، وغابوا عنْ حواسِّهِمْ أحوالاً لا توافقُ هـٰذهِ المعقولاتِ .

ولعلَّ تلكَ الحالةَ هِيَ الموتُ ؛ إذْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱلنَّاسُ نِيَامٌ ، فَإِذَا مَاتُوا . . ٱنْتَبَهُوا »[1] .

فلعلَّ الحياةَ الدنيا نومٌ بالإضافةِ إلى الآخرةِ ، فإذا ماتَ . . ظهرتْ لهُ الأشياءُ علىٰ خلافِ ما يشاهدُهُ الآنَ ، ويُقالُ لهُ عندَ ذلكَ : ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ .

حيرة الإمام الغزالي في الإجابة علىٰ تلك الاحتمالات ورد تلك الفرضيات

فلمَّا خطرَتْ لي هـٰذهِ الخواطرُ ، وٱنقدحتْ في النفسِ . . حاولتُ لذلكَ علاجاً فلمْ يتيسَّرْ ؛ إذْ لمْ يمكنْ دفعُهُ إلاَّ بدليلٍ ، ولمْ يمكنْ نصبُ دليلٍ إلاَّ مِنْ تركيبِ العلومِ الأوَّليَّةِ ، فإذا لمْ تكنْ مسلَّمةً . . لمْ يمكنْ ترتيبُ الدليلِ .

شفاء الإمام من تلك الحيرة وعود النفس للصحة والاعتدال

فأعضلَ هـٰذا الداءُ ، ودامَ قريباً مِنْ شهرينِ ، أنا فيهما علىٰ مذهبِ السَّفْسَطَةِ بحكمِ الحالِ ، لا بحكمِ النطقِ والمقالِ ، حتَّىٰ شفى اللهُ تعالىٰ مِنْ ذلكَ المرضِ والإعتلالِ ، وعادتِ النفسُ إلى الصحَّةِ والإعتدالِ ، ورجعتِ الضروريَّاتُ العقليَّةُ مقبولةً موثوقاً بها علىٰ أمْنٍ ويقينٍ .

---

(١) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٧/ ٥٢) من قول سفيان الثوري رحمه الله تعالىٰ .

ولمْ يكنْ ذلكَ بنظْمِ دليلٍ وترتيبِ كلامٍ ، بلْ بنورٍ قذفَهُ اللهُ تعالىٰ في الصدْرِ ؛ وذلكَ النورُ هُوَ مِفتاحُ أكثرِ المعارفِ ، فمَنْ ظنَّ أنَّ الكشْفَ موقوفٌ على الأدلَّةِ المحرَّرَةِ . . فقدْ ضيَّقَ رحمةَ اللهِ تعالى الواسعةَ[1] .

سبب الشفاء نور من الله لا بدليل وترتيب كلام

ولمَّا سُئِلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنِ (الشَّرْحِ) ومعناهُ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ . . قالَ : « هُوَ نُورٌ يَقذِفُهُ ٱللهُ تَعَالَىٰ فِي ٱلْقَلْبِ ، فَيَشْرَحُ لَهُ ٱلصَّدْرَ » ، فقِيلَ : وما علامتُهُ ؟ قالَ : « ٱلتَّجَافِي عَنْ دَارِ ٱلْغُرُورِ ، وَٱلْإِنَابَةُ إِلَىٰ دَارِ ٱلْخُلُودِ »[2] .

مجادلة بيان ذلك النور والاستدلال عليه

وهُوَ النورُ الذي قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيهِ : « إِنَّ ٱللهَ تَعَالَىٰ خَلَقَ ٱلْخَلْقَ فِي ظُلْمَةٍ ، ثُمَّ رَشَّ عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ »[3] .

هذا النور ينبغي طلبه والتعرض له

---

(١) والدليل البرهاني لإبطال مذهب السفسطة علىٰ منحيين : تحقيقاً : أنا نجزم بالضرورة بثبوت بعض الأشياء بالعيان ، وبعضها بالبيان . وإلزاماً : أنه إذا لم يتحقق نفي الأشياء . . فقد ثبتت ، وإن تحقق . . فقد ثبت شيء من الحقائق ، فلم يصح نفيها على الإطلاق . انظر « شرح العقائد النسفية » (ص٥٩) .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣١١) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (١٠٠٦٨) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، وفي (د ، و) : ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ ، وهو كذلك في « الزهد » لابن المبارك (٣١٥) .

(٣) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٦١٧٠) ، والترمذي (٢٦٤٢) عن سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما .

فمِنْ ذلكَ النورِ ينبغي أنْ يُطلَبَ الكشْفُ ، وذلكَ النورُ ينبَجِسُ مِنَ الجودِ الإلـٰهيِّ في بعضِ الأحايينِ ، ويجبُ الترصُّدُ لهُ ؛ كما قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِنَّ لِرَبِّكُمْ فِي أَيَّامِ دَهْرِكُمْ نَفَحَاتٍ ، أَلاَ فَتَعَرَّضُوا لَهَا »[1] .

المقصود مما سبق بيان الغاية من كمال الجد في الطلب

والمقصودُ مِنْ هـٰذهِ الحكايةِ : أنْ تعلمَ كمالَ الجِدِّ في الطلبِ ، حيثُ أنتهىٰ إلىٰ طلبِ ما لا يُطلَبُ ، فإنَّ الأوَّليَّاتِ ليستْ مطلوبةً ؛ فإنَّها حاضرةٌ ، والحاضرُ إذا طُلِبَ . . فُقِدَ وٱختفىٰ ، ومَنْ طلبَ ما لا يُطلَبُ . . فلا يُتَّهَمُ بالتقصيرِ في طلَبِ ما يُطلَبُ .

(١) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (١٩/ ٢٣٣) ، والرامهرمزي في « المحدث الفاصل » (ص٤٩٧) عن سيدنا محمد بن مسلمة الأنصاريّ رضي الله عنه .

القول في أصناف الطالبين

بيان أن الحق لا يعدو هذه الفرق الأربعة

ولمَّا كفاني اللهُ تعالىٰ مؤونةَ هٰذا المرضِ بفضلِهِ وسَعَةِ جودِهِ . . أنحصرتْ أصنافُ الطالبينَ عندي في أربعِ فِرَقٍ :

المتكلمونَ : وهمْ يدَّعونَ أنَّهُمْ أهلُ الرأيِ والنظرِ .

والباطنيَّةُ : وهمْ يزعُمونَ أنَّهُمْ أصحابُ التعليمِ ، والمخصوصونَ بالِاقتباسِ مِنَ الإمامِ المعصومِ .

والفلاسفةُ : وهمْ يزعمونَ أنَّهُمْ أهلُ المنطقِ والبرهانِ .

والصوفيَّةُ : وهمْ يدَّعونَ أنَّهُمْ خواصُّ حضرةِ الربوبيَّةِ ، وأهلُ المشاهدةِ والمكاشفةِ .

❀ ❀ ❀

دليل حصر الطالبين في هذه الأصناف الأربعة

فقلتُ في نفسي : الحقُّ لا يعدو هٰذهِ الأصنافَ الأربعةَ ؛ فهٰؤلاءِ همُ السالكونَ سبلَ طلبِ الحقِّ ، فإنْ شذَّ الحقُّ عنهُمْ . . فلا يبقىٰ في دَرْكِ الحقِّ مطمعٌ ؛ إذْ لا مطمعَ في الرجوعِ إلى التقليدِ بعدَ مفارقتِهِ .

إذْ مِنْ شرطِ المقلِّدِ : ألاَّ يعلمَ أنَّهُ مقلِّدٌ ، فإذا علِمَ ذلكَ . . أنكسرتْ زجاجةُ تقليدِهِ ، وهُوَ شَعْبٌ لا يُرأَبُ ، وشَعَثٌ لا يُلَمُّ

بالتلفيقِ والتأليفِ ، إلاَّ أنْ يُذابَ بالنارِ ، ويُستأنفَ لهُ صنعةٌ أخرىٰ مستجدَّةٌ .

المبادرة باستقصاء ما عند هٰذه الفرق

فأبتدرتُ لسلوكِ هٰذهِ الطُّرُقِ ، وأستقصاءِ ما عندَ هٰذهِ الفِرَقِ ؛ مبتدِئاً بعلمِ الكلامِ ، ومثنِّياً بطريقِ الفلسفةِ ، ومثلِّثاً بتعليماتِ الباطنيَّةِ ، ومربِّعاً بطريقةِ الصوفيَّةِ .

القول في بيان مقصود علم الكلام وحاصله

لم يوفِّ علم الكلام بمقصود الإمام

ثُمَّ إنِّي ٱبتدأتُ بعلمِ الكلامِ ، فحصَّلتُهُ وعَلَّقْتُهُ ، وطالعتُ كتبَ المحقِّقينَ منْهُمْ ، وصنَّفتُ فيهِ ما أردتُ أنْ أصنِّفَ ، فصادفتُهُ علماً وافياً بمقصودِهِ غيرَ وافٍ بمقصودي .

مقصود علم الكلام

وإنَّما مقصودُهُ : حفظُ عقيدةِ أهلِ السنَّةِ علىٰ أهلِ السنَّةِ ، وحراستُها عنْ تشويشِ أهلِ البدعةِ .

إنزال العقيدة الحق ومحاولة المبتدعة الإخلال بها

فقدْ ألقى اللهُ سبحانَهُ وتعالىٰ إلىٰ عبادِهِ علىٰ لسانِ رسولِهِ عقيدةً هِيَ الحقُّ علىٰ ما فيهِ صلاحُ دينِهِمْ ودنياهُمْ ، كما نطقَ بمُفرَّقاتِهِ القرآنُ والأخبارُ ، ثُمَّ ألقى الشيطانُ في وساوسِ المبتدعةِ أموراً مخالفةً للسنَّةِ ، فلهِجوا بها ، وكادوا يشوِّشونَ عقيدةَ الحقِّ علىٰ أهلِها .

نشأة علم الكلام بتسليط الله المتكلمينَ على المبتدعة ورد محدثاتهم

فأنشأَ اللهُ تعالىٰ طائفةَ المتكلِّمينَ ، وحرَّكَ دواعيَهُمْ لنُصرةِ السنَّةِ بكلامٍ مرتَّبٍ ، يكشِفُ عنْ تلبيساتِ أهلِ البدَعِ المحدثَةِ علىٰ خلافِ السنَّةِ المأثورةِ ، فمنْهُ نشأَ علمُ الكلامِ وأهلُهُ ، فلقدْ قامَ طائفةٌ منْهُمْ بما ندبَهُمُ اللهُ تعالىٰ لهُ ، فأحسنوا الذبَّ عنِ السُّنَّةِ ،

والنضالَ عنِ العقيدةِ المتلقَّاةِ بالقَبولِ مِنَ النبوَّةِ ، والتغييرَ في وجهِ ما أُحدِثَ مِنَ البدعةِ .

❁ ❁ ❁

سبب كون علم الكلام غير واف بمقصود الإمام

ولٰكنَّهُمُ ٱعتمدوا في ذلكَ علىٰ مقدِّماتٍ يسلِّمونَها مِنْ خصومِهِمْ ، ٱضطرَّهُمْ إلىٰ تسليمِها : إمَّا التقليدُ ، أوْ إجماعُ الأمَّةِ ، أوْ مجرَّدُ القَبولِ مِنَ القرآنِ والأخبارِ .

وكانَ أكثرُ خوضِهِمْ في ٱستخراجِ مناقضاتِ الخصومِ ، ومؤاخذتِهِمْ بلوازمِ مسلَّماتِهِمْ ، وهٰذا قليلُ النفعِ في حقِّ مَنْ لا يسلِّمُ سوى الضروريَّاتِ شيئاً أصلاً ، فلمْ يكنِ الكلامُ في حقِّي كافياً ، ولا لدائي الذي كنتُ أشكوهُ شافياً .

❁ ❁ ❁

سبب عدم بلوغ علم الكلام الغاية في الذب عن السنة

نعمْ ؛ لمَّا نشأتْ صنعةُ الكلامِ ، وكثُرَ الخوضُ فيهِ ، وطالتِ المدَّةُ . . تشوَّفَ المتكلمونَ إلىٰ محاولةِ الذبِّ عنِ السنَّةِ بالبحثِ عنْ حقائقِ الأمورِ ، وخاضوا في البحثِ عنِ الجواهرِ والأعراضِ وأحكامِها ؛ ولٰكنْ لمَّا لمْ يكنْ ذلكَ مقصودَ علمِهِمْ . . لمْ يبلغْ كلامُهُمْ فيهِ الغايةَ القُصوىٰ ، فلمْ يحصلْ منْهُ ما يمحَقُ بالكليَّةِ ظُلُماتِ الحَيرةِ في ٱختلافاتِ الخَلقِ .

ولا أُبعدُ أنْ يكونَ قدْ حصلَ ذلكَ لغيري ، بلْ لستُ أشُكُّ في

حصولِ ذلكَ لطائفةٍ ، ولـكنْ حصولاً مَشُوباً بالتقليدِ في بعضِ الأمورِ التي ليستْ مِنَ الأوَّليَّاتِ ، **والغرضُ الآنَ حكايةُ حالي** ، لا الإنكارُ علىٰ مَن ٱستشفىٰ بهِ ؛ **فإنَّ أدويةَ الشفاءِ تختلفُ بٱختلافِ الداءِ** ، وكمْ منْ دواءٍ ينتفعُ بهِ مريضٌ ويستضرُّ بهِ آخرُ !!

القول في حاصل الفلسفة

وما يُذَمّ منها وما لا يُذَمّ ، وما يُكَفَّر فيه قائله وما لا يُكَفَّر ، ولكن يُبَدَّع فيه وبيان ما سرقوه من كلام أهل الحق ومزجوه بكلامهم لترويج باطلهم في دَرْج ذلك وكيفية حصول نفرة النفوس من ذلك الحق وكيفية استخلاص صراف الحقائق الحق الخالص من الزيف والبهرج من جملة كلامهم

الوقوف على فساد علم من العلوم بالتبحر فيه

ثُمَّ إنِّي ٱبتدأتُ بعدَ الفراغِ مِنْ علمِ الكلامِ بعلمِ الفلسفةِ ، وعلمتُ يقيناً : أنَّهُ لا يقِفُ علىٰ فسادِ نوعٍ مِنَ العلومِ مَنْ لا يقفُ علىٰ منتهىٰ ذلكَ العلمِ ؛ حتَّىٰ يساويَ أعلمَهُمْ في أصلِ ذلكَ العلمِ ، ثُمَّ يزيدَ عليهِ ويجاوزَ درجتَهَ ، فيطَّلعَ علىٰ ما لمْ يطَّلعْ عليهِ صاحبُ العلمِ مِنْ غَورٍ وغائلةٍ ، فإذْ ذاكَ يمكنُ أنْ يكونَ ما يدَّعيهِ مِنْ فسادِهِ حقّاً .

❀ ❀ ❀

ابتعاد علماء الإسلام عن علم الفلسفة

ولمْ أرَ أحداً مِنْ علماءِ الإسلامِ صرفَ عِنانَ عنايتِهِ وهمَّتِهِ إلىٰ ذلكَ ، ولمْ يكنْ في كتبِ المتكلِّمينَ مِنْ كلامِهِمْ حيثُ ٱشتغلُوا بالردِّ عليهِمْ إلا كلماتٌ معدودةٌ مبدَّدَةٌ ظاهرةُ التناقضِ والفسادِ ، لا يُظَنُّ الاغترارُ بها لغافلٍ عامِّيٍّ ، فضلاً عمَّنْ يدَّعي دقائقَ العلومِ .

فعلمتُ أنَّ ردَّ هـٰذا المذهبِ قبلَ فهمِهِ والاِطِّلاعِ علىٰ كُنْهِهِ رميٌ في عَمايةٍ .

خوض الإمام الغزالي خِضَم بحر الفلسفة بحثاً عن الحق فيه

فشمَّرْتُ عنْ ساقِ الجِدِّ في تحصيلِ ذلكَ العلمِ مِنَ الكتبِ بمجرَّدِ المطالعةِ مِنْ غيرِ ٱستعانةٍ بأستاذٍ ومعلِّمٍ ، وأقبلتُ علىٰ ذلكَ في أوقاتِ فراغي مِنَ التدريسِ والتصنيفِ في العلومِ الشرعيَّةِ وأنا ممنُوٌّ بالتدريسِ والإفادةِ لثلاثِ مئةِ نفرٍ مِنَ الطلبةِ ببغدادَ[1] .

قوة اطلاع الإمام علىٰ علم الفلسفة كشفت له ما فيه من خداع وتلبيس

فأطلعَني اللهُ سبحانَهُ وتعالىٰ بمجرَّدِ المطالعةِ في هـٰذهِ الأوقاتِ المختلَسَةِ علىٰ منتهىٰ علومِهِمْ في أقلَّ مِنْ سنتينِ ، ثُمَّ لمْ أزلْ أواظبُ على التفكُّرِ فيهِ بعدَ فهمِهِ قريباً مِنْ سنةٍ أعاودُهُ وأردِّدُهُ ، وأتفقَّدُ غوائلَهُ وأغوارَهُ ، حتَّى ٱطَّلعتُ علىٰ ما فيهِ مِنْ خِداعٍ وتلبيسٍ ، وتحقيقٍ وتخييلٍ ، ٱطِّلاعاً لمْ أشُكَّ فيهِ .

لزوم الكفر والإلحاد للفلاسفة

فٱسمعِ الآنَ حكايةَ مذهبِهِمْ وحاصلَ علومِهِمْ: فإنِّي رأيتُهُمْ أصنافاً، ورأيتُ علومَهُمْ أقساماً ، وهمْ علىٰ كثرةِ أصنافِهِمْ تلزمُهُمْ وَصْمَةُ الكفرِ والإلحادِ ، وإنْ كانَ بينَ القدماءِ منْهُمْ والأقدمينَ وبينَ الأواخرِ منْهُمْ والأوائلِ تفاوتٌ عظيمٌ في البعدِ عنِ الحقِّ والقربِ منْهُ.

---

(١) ممنو : مبتلىً ، وبغداذ : بغداد .

فصل

في أصنافهم وشمول سمة الكفر كافتهم

حصر الفلاسفة في أقسام ثلاثة

اِعلمْ : أنَّهُمْ علىٰ كثرةِ فرَقِهِمْ ، واختلافِ مذاهبِهِمْ ينقسمونَ إلىٰ ثلاثةِ أقسامٍ : الدُّهْريُّون ، والطبيعيُّونَ ، والإلـٰهيُّونَ .

أولاً: الدهريون وبيان معتقدهم

الصِّنفُ الأوَّلُ : الدُّهريُّونَ : وهمْ طائفةٌ مِنَ الأقدمينَ ، جحدوا الصانعَ المدبِّرَ العالِمَ القادرَ ، وزعموا أنَّ العالَمَ لمْ يَزَلْ موجوداً كذلكَ بنفسِهِ لا بصانعٍ ، ولمْ يزلِ الحيوانُ مِنْ نُطفةٍ ، والنطفةُ مِنْ حيوانٍ ، كذلكَ كانَ ، وكذلكَ يكونُ ، أزلاً وأبداً ، وهؤلاءِ همُ الزنادقةُ .

ثانياً: الطبيعيون وبيان معتقدهم

الصِّنفُ الثاني : الطبيعيُّونَ : وهمْ قومٌ أكثروا بحثَهُمْ عنْ عالَمِ الطبيعةِ ، وعنْ عجائبِ الحيوانِ والنباتِ ، وأكثروا الخوضَ في علمِ تشريحِ أعضاءِ الحيواناتِ ؛ فرأَوا فيها مِنْ عجائبِ صنْعِ اللهِ تعالىٰ وبدائعِ حكمتِهِ ما اضطُرّوا معَهُ إلى الاعترافِ بفاطرٍ حكيمٍ ، مطَّلعٍ علىٰ غاياتِ الأمورِ ومقاصدِها .

ولا يطالعُ التشريحَ وعجائبَ منافعِ الأعضاءِ مطالعٌ إلاَّ ويحصلُ لهُ هـٰذا العلْمُ الضروريُّ بكمالِ تدبيرِ الباني لبنيةِ الحيوانِ ، لا سيَّما بنيةِ الإنسانِ ، إلاَّ أنَّ هؤلاءِ لكثرة بحثِهِمْ عنْ الطبيعةِ ظهرَ عندهُمْ لِاعتدالِ المِزاج تأثيرٌ عظيمٌ في قِوامِ قُوى الحيوانِ بهِ ، فظنُّوا أنَّ القوَّةَ العاقلةَ مِنَ الإنسانِ تابعةٌ لمِزاجِهِ أيضاً ، وأنَّها تبطلُ ببطلانِ مزاجِهِ فينعدمُ .

شبهة اعتقاد الطبيعيين القوة العاقلة من الإنسان تابعة لمزاجه

ثُمَّ إذا أنعدمَ . . فلا يُعقَلُ إعادةُ المعدومِ كما زعموا ، فذهبوا إلىٰ أنَّ النفسَ تموتُ ولا تعودُ ؛ فجحدوا الآخرةَ ، وأنكروا الجنَّةَ والنارَ ، والحشرَ والنشرَ ، والقيامةَ والحسابَ ، فلمْ يبقَ عندَهُمْ للطاعةِ ثوابٌ ، ولا للمعصيةِ عقابٌ ، فأنحلَّ عنْهُمُ اللِّجامُ ، وأنهمكوا في الشهواتِ أنهماكَ الأنعامِ ، وهؤلاءِ أيضاً زنادقةٌ ؛ لأنَّ أصلَ الإيمانِ هُوَ الإيمانُ باللهِ واليومِ والآخرِ ، وهؤلاءِ جحدوا اليومَ الآخرَ وإنْ آمنوا باللهِ تعالىٰ وصفاتِهِ .

وقوعهم في إنكار الإعادة بعد العدم وكفرهم بذلك

الصنفُ الثالثُ : الإلـٰهيُّونَ : وهمَ المتأخِّرونَ منهُمْ ؛ مثلُ سقراطَ وهُوَ أستاذُ أَفْلاطُونَ ، وأَفْلاطُونَ أستاذِ أرسطاطاليسَ ، وأرسطاطاليسُ هُوَ الذي رتَّبَ لهُمُ المنطقَ، وهذَّبَ العلومَ، وخمَّرَ لهُمْ ما لمْ يكنْ مخمَّراً مِنْ قبلُ، وأنضجَ لهُمْ ما كانَ فِجّاً مِنْ علومِهِمْ.

ثالثاً: الإلهيون وبيان أساتذتهم ومعتقدهم

وهمْ بجملتِهِمْ ردُّوا على الصنفينِ الأوَّلينِ مِنَ الدُّهريَّةِ والطبيعيَّةِ ، وأوردُوا في الكشفِ عنْ فضائحِهِمْ ما أغنَوا بهِ غيرَهُمْ ، وكفَى اللهُ المؤمنينَ القتالَ بتقاتُلِهِمْ .

بردِّهم على بعضهم كُفي المؤمنون

ثُمَّ رَدَّ أرسطاطاليسُ علىٰ أفلاطونَ وسقراطَ ومَنْ كانَ قبلَهُ مِنَ الإلـٰهيِّينَ ردّاً لمْ يُقصِّرْ فيهِ ، حتَّىٰ إنَّهُ تبرَّأَ مِنْ جميعِهِمْ ، إلاَّ أنَّهُ ٱستبقىٰ مِنْ رذائلِ كفرِهِمْ وبدعتِهِمْ بقايا لمْ يُوفَّقْ للنزوعِ عنْها ؛ فوجبَ بذلكَ تكفيرُهُمْ وتكفيرُ متَّبعيهِمْ مِنْ متفلسِفةِ الإسلاميِّينَ ؛ كابنِ سِينا والفارَابيِّ وأمثالِهِما .

❀ ❀ ❀

ابن سينا والفارابي من نقلا علم أرسطاطاليس

علىٰ أنَّهُ لمْ يقمْ بنقلِ علْمِ أرسطاطاليسَ أحدٌ مِنْ متفلسِفةِ الإسلاميِّينَ كقيامِ هـٰذينِ الرجلينِ ، وما نقلَهُ غيرُهُما . . ليسَ يخلو مِنْ تخبُّطٍ وتخليطٍ يتشوَّشُ فيهِ قلبُ المطالعِ ، حتَّىٰ لا يفهمُ ، وما لا يُفهَمُ . . كيفَ يُرَدُّ أوْ يُقبَلُ ؟!

❀ ❀ ❀

أقسام ما صحَّ من فلسفة أرسطاطاليس مع الحكم الشرعي عليه

ومجموعُ ما صحَّ عندَنا مِنْ فلسفةِ أرسطاطاليسَ بحسبِ نقْلِ هـٰذينِ الرجلينِ . . ينحصرُ في ثلاثةِ أقسامٍ :

- قسمٌ يجبُ التكفيرُ بهِ .
- وقسمٌ يجبُ التبديعُ بهِ .
- وقسمٌ لا يجبُ إنكارُهُ أصلاً ، فلنفصِّلْهُ :

فصلٌ
في أقسام علومهم

اِعلمْ : أنَّ علومَهُمْ بالنسبةِ إلى الغرضِ الذي نطلبُهُ ستةُ أقسامٍ : رياضيَّةٌ ، ومنطقيَّةٌ ، وطبيعيَّةٌ ، وإلـٰهيَّةٌ ، وسياسيَّةٌ ، وخُلقيَّةٌ .

العلوم الرياضية وآفتاها

أمَّا الرياضيَّةُ : فتتعلَّقُ بعلمِ الحسابِ ، والهندسةِ ، وعلمِ هيئةِ العالَمِ ، وليسَ يتعلَّقُ منها شيءٌ بالأمورِ الدينيَّةِ نفياً وإثباتاً ؛ بلْ هِيَ أمورٌ برهانيَّةٌ لا سبيلَ إلىٰ مجاحدَتِها بعدَ فهمِها ومعرفتِها .

أُولى الآفتين تحسين الاعتقاد بالفلاسفة

وقدْ تولَّدتْ منها آفتانِ :

إحداهُما : أنَّ مَنْ ينظرُ فيها فيتعجَّبُ مِنْ دقائقِها ومِنْ ظهورِ براهينِها . . يَحْسُنُ بسببِ ذلكَ ٱعتقادُهُ في الفلاسفةِ ، فيحسَبُ أنَّ جميعَ علومِهِمْ في الوضوحِ ووثاقةِ البرهانِ كهـٰذا العلمِ .

الاستدراج بتحسين الاعتقاد للوقوع في تقليدهم في الكفر

ثُمَّ يكونُ قدْ سمعَ مِنْ كفرِهِمْ وتعطيلِهِمْ وتهاونِهِمْ بالشرعِ ما تداولتْهُ الألسُنُ ؛ فيكفرُ بالتقليدِ المحضِ ، ويقولُ : لوْ كانَ الدينُ حقّاً . . لَمَا ٱختفىٰ علىٰ هـٰؤلاءِ معَ تدقيقِهِمْ في هـٰذا العلمِ !!

فإذا عَرَفَ بالتسامعِ كفرَهُمْ وجَحْدَهُمْ . . ٱستدلَّ علىٰ أنَّ الحقَّ

هُوَ الجحدُ والإنكارُ للدِّينِ ، وكمْ رأيتُ ممَّنْ ضَلَّ عنِ الحقِّ بهٰذا القدْرِ ولا مستندَ لهُ سواهُ !!

❁ ❁ ❁

الـرد علـىٰ شبهـة استحسانهم وتقليدهم بأن الحذق في صناعةٍ لا يعني الحذق في كل صناعة

وإذا قِيلَ لهُ : الحاذقُ في صناعةٍ واحدةٍ ليسَ يلزمُ أنْ يكونَ حاذقاً في كلِّ صناعةٍ[1] ؛ فلا يلزمُ أنْ يكونَ الحاذقُ في الفقهِ والكلامِ حاذقاً في الطبِّ ، ولا أنْ يكونَ الجاهلُ بالعقليَّاتِ جاهلاً بالنحوِ ، بلْ لكلِّ صناعةٍ أهلٌ بلغوا فيها رتبةَ البراعةِ والسَبْقِ ، وإنْ كانَ الخَمْنُ والجهلُ قدْ يلزمُهُمْ في غيرِها[2] ؛ فكلامُ الأوائلِ في الرياضيَّاتِ برهانيٌّ ، وفي الإلـٰهيَّاتِ تخمينيٌّ ، لا يَعرفُ ذلكَ إلاَّ مَنْ جرَّبَهُ وخاضَ فيهِ .

❁ ❁ ❁

الهوىٰ أو التعصب من المقلد هو الداء العضال

فهٰذا إذا قُرِّرَ علىٰ هٰذا الذي أَلحدَ بالتقليدِ . . لمْ يقعْ منْهُ موقعَ القَبولِ ، بلْ تحملُهُ غلبةُ الهوىٰ وشهوةُ البَطالةِ وحبُّ التكايسِ علىٰ أنْ يُصِرَّ علىٰ تحسينِ الظنِّ بهِمْ في العلومِ كلِّها .

فهٰذهِ آفةٌ عظيمةٌ لأجلِها يجبُ زجْرُ كلِّ مَنْ يخوضُ في تلكَ العلومِ ؛ فإنَّها وإنْ لمْ تتعلَّقْ بأمرِ الدِّينِ ، ولٰكنْ لمَّا كانتْ مِنْ

---

(١) في (ز) : (أن يكون حاذقاً في صناعة أخرىٰ) .

(٢) الخَمْنُ : مصدرٌ كالتخمين ، وهو القول بالحدس ، وفي غير (أ) : (الحمق) .

مبادىءِ علومِهِمْ . . سرىٰ إليها شرُّهُمْ وشؤمُهُمْ ، فقلَّ مَنْ يخوضُ فيها إلاَّ وينخلعُ مِنَ الدِّينِ ، وينحلُّ عنْ رأسِهِ لِجامُ التقوىٰ .

❁ ❁ ❁

ثاني الآفتين : ضرر جهل بعض المسلمين على الإسلام

الآفةُ الثانيةُ : نشأَتْ مِنْ صديقٍ للإسلامِ جاهلٍ ، ظَنَّ أنَّ الدينَ ينبغي أنْ يُنصَرَ بإنكارِ كلِّ علمٍ منسوبٍ إليهِمْ ، فأنكرَ جميعَ علومِهِمْ ، وادَّعىٰ جهلَهُمْ فيها ، حتَّىٰ أنكرَ قولَهُمْ في الخسوفِ والكسوفِ ، وزَعَمَ أنَّ ما قالوهُ علىٰ خلافِ الشرعِ .

الاحتجاج بسفه جاهل مسلم على تسفيه الإسلام وتجهيله

فلمَّا قَرَعَ ذلكَ سَمْعَ مَنْ عَرَفَهُ بالبرهانِ القاطعِ . . لمْ يشُكَّ في برهانِهِ ، ولـٰكنِ اعتقدَ أنَّ الإسلامَ مبنيٌّ على الجهلِ وإنكارِ البرهانِ القاطعِ ، فازدادَ للفلسفةِ حبّاً وللإسلامِ بغضاً ، ولقدْ عَظُمَ على الدِّينِ جِنايةُ مَنْ ظنَّ أنَّ الإسلامَ يُنصَرُ بإنكارِ هـٰذهِ العلومِ ، وليسَ في الشرعِ تعرُّضٌ لهـٰذهِ العلومِ بالنفيِ والإثباتِ ، ولا في هـٰذهِ العلومِ تعرُّضٌ للأمورِ الدينيَّةِ .

❁ ❁ ❁

الإسلام لا يعارض العلوم الطبيعية

وقولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِنَّ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ ٱللهِ سُبْحَانَهُ ، لاَ يُخْسَفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلاَ لِحَيَاتِهِ ، وَلَـٰكِنَّ ٱللهَ تَعَالَىٰ إِذَا تَجَلَّىٰ لِشَيْءٍ . . خَضَعَ لَهُ ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ . . فَٱفْزَعُوا إِلَى ٱلصَّلاَةِ » ، ويُروىٰ : « إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللهِ تَعَالَىٰ »[1] .

---

(١) رواه البخاري (١٠٤٦) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٣٣١) ، =

وليسَ في هـٰذا ما يوجبُ إنكارَ علمِ الحسابِ المعرِّفِ لمسيرِ الشمسِ والقمرِ ، وٱجتماعِهما أوْ مقابلتِهما علىٰ وجهٍ مخصوصٍ .

أمَّا قولُهُ عليهِ السلامُ : (ولـٰكنَّ اللهَ إذا تجلَّىٰ لشيءٍ . . خضعَ لهُ) . . فليسَ توجدُ هـٰذهِ الزيادةُ في الصِّحاحِ أصلاً[1] .

هـٰذا حكمُ الرياضيَّاتِ وآفتُها .

❀ ❀ ❀

بيان علوم المنطقيات

وأمَّا المنطقيَّاتُ : فلا يتعلَّقُ منْها شيءٌ بالدِّينِ نفياً وإثباتاً ، بلْ هِيَ النَظَرُ في طرقِ الأدلَّةِ والمقاييسِ ، وشروطِ مقدِّماتِ البرهانِ ، وكيفيَّةِ تركيبِها ، وشروطِ الحدِّ الصحيحِ ، وكيفيَّةِ ترتيبِهِ ، وأنَّ العلمَ : إمَّا تصوُّرٌ وسبيلُ معرفتِهِ الحدُّ ، وإمَّا تصديقٌ وسبيلُ معرفتِهِ البرهانُ .

❀ ❀ ❀

لا مسوغ لإنكار علم المنطق شرعاً

وليسَ في هـٰذا ما ينبغي أنْ يُنكَرَ ، بلْ هُوَ مِنْ جنسِ ما ذكرَهُ المتكلِّمونَ وأهلُ النظرِ في الأدلَّةِ ، وإنَّما يفارقونَهُمْ بالعباراتِ والإصطلاحاتِ ، وبزيادةِ الإستقصاءِ في التفريعاتِ والتشعيباتِ .

ومثالُ كلامِهِمْ فيها قولُهُمْ : إذا ثَبَتَ أنَّ كلَّ (أ) (ب) . . لزِمَ

= والنسائي (٣/ ١٥٠) عن السيدة عائشة رضي الله عنها .

(١) الزيادة رواها الحاكم في « المستدرك » (١/ ٣٣١) عن سيدنا النعمان بن بشير رضي الله عنهما .

أنَّ بعضَ (ب) (أ) ؛ أيْ : إذا ثبتَ أنَّ كلَّ إنسانٍ حيوانٌ . . لزِمَ أنَّ بعضَ الحيوانِ إنسانٌ ، ويعبِّرونَ عنْ هـٰذا بأنَّ الموجَبةَ الكليَّةَ تنعكسُ موجَبةً جزئيَّةً .

وأيُّ تعلُّقٍ لهـٰذا بمهمَّاتِ الدِّين حتَّىٰ يُجحَدَ ويُنكَرَ ؟!

وإذا أُنكِرَ . . لمْ يحصلْ مِنْ إنكارِهِ عندَ أهلِ المنطقِ إلاَّ سوءُ الاعتقادِ في عقلِ المنكِرِ ، بلْ في دينِهِ الذي يزعُمُ أنَّهُ موقوفٌ علىٰ مثلِ هـٰذا الإنكارِ .

من بعض آفات علم المنطق: ظلم الدين بالتساهل في برهان المقاصد الدينية

نعمْ ؛ لهُمْ نوعٌ مِنَ الظلمِ في هـٰذا العلمِ ؛ وهُوَ أنَّهُمْ يَجمعونَ للبرهانِ شروطاً يُعلَمُ أنَّها تورثُ اليقينَ لا محالةَ ، لـٰكنَّهُمْ عندَ الانتهاءِ إلى المقاصدِ الدينيَّةِ ما أمكنَهُمُ الوفاءُ بتلكَ الشروطِ ، بلْ تساهلُوا غايةَ التساهلِ .

استحسان المنطق قد يوقع في استحسان كفرياته

وربَّما ينظرُ في المنطقِ أيضاً مَنْ يستحسنُهُ ويراهُ واضحاً ، فيَظُنُّ أنَّ ما يُنقَلُ عنْهُمْ مِنَ الكفريَّاتِ مؤيَّدٌ بمثلِ تلكَ البراهينِ ، فيستعجلُ بالكفرِ قبلَ الانتهاءِ إلى العلومِ الإلـٰهيَّةِ ، فهـٰذهِ الآفةُ أيضاً متطرِّقةٌ إليهِ .

حقيقة علم الطبيعيات وما يبحثه

وأمَّا الطبيعيَّاتُ : فهُوَ بحثٌ عنْ أجسامِ عالَمِ السماواتِ وكواكبِها ، وما تحتَها مِنَ الأجسامِ المفردةِ ؛ كالماءِ ، والهواءِ ،

والتـرابِ ، والنـارِ ، وعـنِ الأجسـامِ المـركَّبـةِ ؛ كـالحيـوانِ ، والنبـاتِ ، والمعـادنِ ، وعـنْ أسبـابِ تغيُّـرِهـا وٱستحـالتِهـا وٱمتزاجِها .

علـم الطبيعيـات كعلـم الطـب فـلا ينكـر إلا مسـائـل معينة منه

وذلكَ يضاهي بحثَ الطبيبِ عنْ جسمِ الإنسانِ ، وأعضائِهِ الرئيسةِ والخادمةِ ، وأسبابِ ٱستحالةِ مِزاجِها .

وكما ليسَ مِنْ شرطِ الدِّينِ إنكارُ علمِ الطبِّ . . فليسَ مِنْ شرطِهِ أيضاً إنكارُ ذلكَ العلمِ إلاَّ في مسائلَ معيَّنةٍ ذكرْناها في كتابِ « تهافتِ الفلاسفةِ » ، وما عداها ممَّا يجبُ المخالفةُ فيها ؛ فعندَ التأمُّلِ يتبيَّنُ أنَّها مندرجةٌ تحتَها[1] .

أصـل جملـة علـم الطبيعيات

وأصلُ جملتِها : أنْ تعلمَ أنَّ الطبيعةَ مسخَّرةٌ للهِ تعالىٰ ، لا تعملُ بنفسِها ، بلْ هِيَ مستعمَلَةٌ مِنْ جهةِ فاطرِها ، فالشمسُ

---

(١) قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ في « تهافت الفلاسفة » (ص٢٣٥ـ ٢٣٦) : (وإنما نخالفهم من جملة هٰذه العلوم في أربع مسائل : الأولىٰ : حكمهم بأن هٰذا الاقتران المشاهَد في الوجود بين الأسباب والمسببات اقتران تلازم بالضرورة ، فليس في المقدور ولا في الإمكان إيجاد السبب دون المسبب ، ولا وجود المسبب دون السبب . الثانية : قولهم : إن النفوس الإنسانية جواهر قائمة بأنفسها ليست منطبعة في الجسم . . . الثالثة : قولهم : إن هٰذه النفوس يستحيل عليها العدم . الرابعة : قولهم : يستحيل رد هٰذه النفوس إلى الأجساد) ثم بدأ بالرد علىٰ كل واحدة منها .

والقمرُ والنجومُ والطبائِعُ مسخَّراتٌ بأمرِهِ ، لا فعلَ لشيءٍ منها بذاتِهِ عنْ ذاتِهِ .

حقيقة علم الإلٰهيات وما يشتمل عليه

وأمَّا الإلٰهيَّاتُ : ففيها أكثرُ أغاليطِهِمْ ، فما قَدَروا على الوفاءِ بالبراهينِ علىٰ ما شرطوهُ في المنطقِ ؛ ولذلكَ كثُرَ الإختلافُ بينَهُمْ فيهِ ، ولقدْ قرُبَ مذهبُ أرسطاطاليسَ فيها مِنْ مذاهبِ الإسلاميِّينَ علىٰ ما نقلَهُ الفارابيُّ وابنُ سينا .

سبب تأليف كتاب « تهافت الفلاسفة »

ولٰكنَّ مجموعَ ما غلِطوا فيهِ يرجعُ إلىٰ عشرينَ أصلاً ، يجبُ تكفيرُهُمْ في ثلاثةٍ منْها ، وتبديعُهُمْ في سبعةَ عشرَ[1] ، ولإبطالِ مذهبِهِمْ في هٰذهِ المسائلِ العشرينَ صنَّفْنا كتابَ « التهافتِ » .

المسائل الثلاث المكفرة للفلاسفة

أمَّا المسائلُ الثلاثُ . . فقدْ خالفوا فيها كافَّةَ الإسلاميِّينَ ؛ وذلكَ في قولِهِمْ :

ـ إنَّ الأجسادَ لا تُحشَرُ ، وإنما المثابُ والمعاقبُ هِيَ الأرواحُ المجرَّدَةُ ، والعقوباتُ روحانيَّةٌ لا جسمانيَّةٌ .

---

(١) تبديعهم : تضليلهم في سائر المسائل ؛ لأنهم تخبّطوا فيها ، ولعله عبَّر بالتبديع لأن بعض مبتدعة الإسلاميين وافقهم فيها والله أعلم . وانظر « تهافت الفلاسفة » (ص ٨٦) .

ولقدْ صدَقوا في إثباتِ الروحانيَّةِ ؛ فإنَّها كائنةٌ أيضاً ، ولـٰكنْ كذَبوا في إنكارِ الجسمانيَّةِ ، وكفروا بالشريعةِ فيما نطقوا بهِ .

ـ ومِنْ ذلكَ قولُهُمْ : إنَّ اللهَ تعالىٰ يعلمُ الكلِّياتِ دونَ الجزئيَّاتِ ؛ وهُوَ أيضاً كفرٌ صريحٌ ، بلِ الحقُّ أنَّهُ لا يعزُبُ عنْ علمِهِ مثقالُ ذرَّةٍ في السماواتِ ولا في الأرضِ .

ـ ومِنْ ذلكَ قولُهُمْ بقِدَمِ العالمِ وأزليَّتِهِ .

فلمْ يذهبْ أحدٌ مِنَ المسلمينَ إلىٰ شيءٍ مِنْ هـٰذهِ المسائلِ[1] .

❀ ❀ ❀

عدم التكفير بغير الثلاث

وأمَّا ما وراءَ ذلكَ مِنْ نفيهِمُ الصفاتِ ، وقولِهِمْ : إنَّهُ عالمٌ بالذاتِ لا بعلمٍ زائدٍ ، وما يجري مَجْراهُ . فمذهبُهُمْ فيها قريبٌ مِنْ مذهبِ المعتزلةِ ، ولا يجبُ تكفيرُ المعتزلةِ بمثلِ ذلكَ .

وقدْ ذكرْنا في كتابِ « فيصَلِ التفرِقةِ بينَ الإسلامِ والزندقةِ » ما يتبيَّنُ بهِ فسادُ رأيِ مَنْ يتسارعُ إلى التكفيرِ في كلِّ ما يخالفُ مذهبَهُ[2] .

❀ ❀ ❀

---

(١) جمعها بعضهم فقال :

بثلاثة كفر الفلاسفةُ العِدا ... إذ أنكروها وهْيَ حقّاً مثبَتةْ
علمٌ بجزئيٍّ حدوثُ عَوالمٍ ... حشرٌ لأجساد وكانت ميّتةْ

(٢) انظر « فيصل التفرقة » (ص ٥١) وما بعدها .

حقيقة علم السياسيات وجملة ما يشتمل عليه

وأمَّا السياسيَّاتُ : فجميعُ كلامِهِمْ فيها يرجِعُ إلى الحكَمِ المصلحيَّةِ المتعلِّقَةِ بالأمورِ الدنيويَّةِ ، والإيالةِ السلطانيَّةِ[1] .

وإنَّما أخذُوها مِنْ كتبِ اللهِ تعالى المنزَّلةِ على الأنبياءِ ، ومِنَ الحكَمِ المأثورةِ عنْ سلفِ الأنبياءِ .

العلوم الخُلقيَّة وممن استمدوها وكيف مزجوها بعلمهم لترويج باطلهم

وأمَّا الخُلقيَّةُ : فجميعُ كلامِهِمْ فيها يرجعُ إلىٰ حصْرِ صفاتِ النفسِ وأخلاقِها ، وذكرِ أجناسِها وأنواعِها ، وكيفيَّةِ معالجتِها ومجاهدتِها .

وإنَّما أخذُوها مِنْ كلامِ الصوفيَّةِ ؛ وهمُ المتألِّهونَ والمثابرونَ علىٰ ذكْرِ اللهِ تعالىٰ ، وعلىٰ مخالفةِ الهوىٰ ، وسلوكِ الطريقِ إلى اللهِ تعالىٰ بالإعراضِ عنْ ملاذِّ الدنيا ، وقدِ انكشفَ لهُمْ في مجاهداتِهِمْ مِنْ أخلاقِ النفسِ وعيوبِها ، وآفاتِ أعمالِها ما صرَّحُوا بها ، فأخذَها الفلاسفةُ ومزَجوها بكلامِهِمْ ؛ توسُّلاً بالتجمُّلِ بها إلىٰ ترويجِ باطلِهِمْ .

المتألهون الحقيقيون أوتاد الأرض

ولقدْ كانَ في عصرِهِمْ - بل في كلِّ عصرٍ - جماعةٌ مِنَ المتألِّهينَ لا يُخْلي اللهُ تعالى العالَمَ عنْهُمْ ، فإنَّهُمْ أوتادُ الأرضِ ؛ ببركاتِهِمْ تنزلُ الرحمةُ علىٰ أهلِ الأرضِ ، كما وردَ في الخبرِ حيثُ قالَ

---

(١) الإيالة : الإصلاح والسياسة .

صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بِهِمْ يُمْطَرُونَ ، وَبِهِمْ يُرْزَقُونَ »[1] .

ومنْهُمْ كانَ أصحابُ الكهفِ ، وكانوا في سالفِ الأزمنةِ علىٰ ما نطقَ بهِ القرآنُ .

مزجهم كلام النبوة بكلام الصوفية تولد منه آفتان

فتولَّدَ مِنْ مزجِهِمْ كلامَ النبوَّةِ وكلامَ الصوفيَّةِ بكتبِهِمْ آفتانِ : آفةٌ في حقِّ القابِلِ ، وآفةٌ في حقِّ الرادِّ .

أول الآفتين في حق الراد وعلاجها

أمَّا آفتُهُ في حقِّ مَنْ ردَّهُ . . فعظيمةٌ ؛ إذْ ظنَّتْ طائفةٌ مِنَ الضعفاءِ أنَّ ذلكَ الكلامَ إذْ كانَ مدوَّناً في كتبِهِمْ ، وممزوجاً بباطلِهِمْ . . ينبغي أنْ يُهجَرَ ولا يُذكَرَ ، بلْ ينكرُ علىٰ كلِّ مَنْ يذكرُهُ ؛ لأنَّهُمْ إذا لمْ يسمعوهُ أوَّلاً إلاَّ منْهُمْ . . سبقَ إلىٰ عقولِهِمُ الضعيفةِ أنَّهُ باطلٌ ؛ لأنَّ قائلَهُ مُبْطِلٌ ، كالذي يسمعُ مِنَ النصرانيِّ قولَهُ : (لا إلـٰهَ إلاَّ اللهُ ، عيسىٰ رسولُ اللهِ) فينكرُهُ ويقولُ : هـٰذا كلامُ النصارىٰ ، ولا يتوقَّفُ ريثَما يتأمَّلُ : أنَّ النصرانيَّ كافرٌ بأعتبارِ هـٰذا القولِ ، أوْ بأعتبارِ إنكارِهِ نبوَّةَ محمَّدٍ عليهِ الصلاةُ والسلامُ ؟!

فإنْ لمْ يكنْ كافراً إلاَّ بأعتبارِ إنكارِهِ . . فلا ينبغي أنْ يخالفَ في غيرِ ما هُوَ كافرٌ بِهِ ممَّا هُوَ حقٌّ في نفسِهِ ، وإنْ كانَ أيضاً حقّاً عندَهُ .

---

(١) رواه أبو داوود في « المراسيل » (٣٠٠) عن أبي قلابة رحمه الله تعالىٰ .

اعرف الحق تعرف أهله

وهٰذهِ عادةُ ضعفاءِ العقولِ ، يعرفونَ الحقَّ بالرجالِ ، لا الرجالَ بالحقِّ ، والعاقلُ يقتدي بسيِّدِ العقلاءِ عليٍّ رضيَ اللهُ عنْهُ حيثُ قالَ : (لا تعرفِ الحقَّ بالرجالِ ، اِعرفِ الحقَّ . . تعرفْ أهلَهُ)[1] .

فالعاقلُ يعرفُ الحقَّ ، ثُمَّ ينظرُ في نفْسِ القولِ ؛ فإنْ كانَ حقّاً . . قبِلَهُ ، سواءً كانَ قائلُهُ مبطلاً أوْ محقّاً ، بلْ ربَّما يحرصُ على انتزاعِ الحقِّ مِنْ تضاعيفِ كلامِ أهلِ الضلالِ عالِماً بأنَّ معدِنَ الذهبِ الرَّغامُ[2] .

ولا بأسَ على الصرَّافِ إنْ أدخلَ يدَهُ في كيسِ القَلاَّبِ[3] وانتزعَ الإبريزَ الخالصَ مِنَ الزيفِ والبَهْرَجِ مهما كانَ واثقاً ببصيرتِهِ ؛ فإنَّما يُزجَرُ عنْ معاملةِ القلاَّبِ القَرَويِّ دونَ الصيرفيِّ ، ويُمنَعُ مِنْ ساحلِ البحرِ الأخرقُ دونَ السبَّاحِ الحاذقِ ، ويُصَدُّ عنْ مسِّ الحيَّةِ الصبيُّ دونَ المعزِّمِ البارعِ[4] .

الزجر عن مطالعة كتب أهل الضلال

ولعَمري ؛ لمَّا غلبَ علىٰ أكثرِ الخَلقِ ظنُّهُمْ بأنفسِهِمُ الحذاقةَ والبراعةَ ، وكمالَ العقلِ وتمامَ الآلةِ في تمييزِ الحقِّ عنِ الباطلِ ،

---

(١) أورده في « البيان والتبيين » (٣/ ٢١١) .

(٢) الرغام : التراب .

(٣) القلاّب : مَن يخلط في كيسه الخالص بالزيوف من الدراهم .

(٤) المعزِّم : قارىء العزائم ؛ وهي الرُّقَىٰ .

والهدىٰ عنِ الضلالةِ.. وجبَ حسمُ البابِ في زجرِ الكافَّةِ عنْ مطالعةِ كتبِ أهلِ الضلالِ ما أمكنَ ؛ إذْ لا يسلمونَ عنِ الآفةِ الثانيةِ التي سنذكرُها أصلاً وإنْ سلِموا عنْ هـٰذهِ الآفةِ التي ذكرْناها .

الرد علىٰ من اعترض علىٰ كلمات مبثوثة في كتب الإمام الغزالي

ولقدِ اعترَضَ علىٰ بعضِ الكلماتِ المبثوثةِ في تصانيفِنا في أسرارِ علومِ الدِّينِ طائفةٌ مِنَ الذينَ لمْ تستحكمْ في العلومِ مرائرُهُمْ[1] ، ولمْ تنفتحْ إلىٰ أقصىٰ غاياتِ المذاهبِ بصائرُهُمْ ، وزعمتْ أنَّ تلكَ الكلماتِ مِنْ كلامِ الأوائلِ ؛ معَ أنَّ بعضَها مِنْ مولَّداتِ الخواطرِ ، ولا يبعدُ أنْ يقعَ الحافرُ على الحافرِ ، وبعضُها يوجدُ في الكتبِ الشرعيَّةِ ، وأكثرُها موجودٌ معناهُ في كتبِ الصوفيَّةِ .

وهبْ أنَّها لمْ توجدْ إلاَّ في كتبِهِمْ ؛ فإذا كانَ ذلكَ الكلامُ معقولاً في نفسِهِ ، مؤيَّداً بالبرهانِ ولمْ يكنْ علىٰ مخالفةِ الكتابِ والسنَّةِ.. فلِمَ ينبغي أن يُهجَرَ ويُترَكَ ؟!

ما يترتب علىٰ هجر الحق الذي سبق إليه الخاطر مبطل

فلوْ فتحْنا هـٰذا البابَ ، وتطرَّقْنا إلىٰ أنْ يُهجَرَ كلُّ حقٍّ سبقَ إليهِ خاطرُ مبطِلٍ.. للزمْنا أنْ نهجرَ كثيراً مِنَ الحقِّ ، وللزمْنا أنْ نهجرَ جملةً مِنْ آياتِ القرآنِ ، وأخبارِ الرسولِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وحكاياتِ السلفِ ، وكلماتِ الحكماءِ والصوفيَّةِ ؛ لأنَّ صاحبَ

---

(١) المِرَّة : العقل .

كتابِ « إخوانِ الصَّفا » أوردَها في كتابِهِ مستشهِداً بها ، ومستدرِجاً قلوبَ الحمقىٰ بواسطتِها إلىٰ باطلِهِ ، ويتداعىٰ ذلكَ إلىٰ أنْ يستخرجَ المبطلونَ الحقَّ مِنْ أيدينا بإيداعِهِمْ إيَّاهُ في كتبِهِمْ .

❁ ❁ ❁

أقل درجات العالم تميزه عن العامي الغمر

وأقلُّ درجاتِ العالِمِ : أنْ يتميَّزَ عنِ العامِّيِّ الغُمْرِ[1] ؛ فلا يعافُ العسلَ وإنْ وجدَهُ في مِحْجَمَةِ الحجَّامِ ، ويتحقَّقُ أنَّ المحجمةَ لا تغيِّرُ ذاتَ العسلِ ؛ فإنَّ نَفْرةَ الطبعِ عنْهُ مبنيَّةٌ علىٰ جهْلٍ عامِّيٍّ ، منشؤُهُ : أنَّ المحجمةَ إنَّما صِيغتْ للدمِ المستقذَرِ ، فيظنُّ أنَّ الدمَ مستقذرٌ لكونِهِ في المحجمةِ ، ولا يدري أنَّهُ مستقذرٌ لصفةٍ في ذاتِهِ ، فإذا عُدِمَتْ هٰذهِ الصفةُ في العسلِ . . فكونُهُ في ظرفِهِ لا يُكسبُهُ قوَّةَ تلكَ الصفةِ ، فلا ينبغي أنْ يُوجَبَ لهُ الِاستقذارُ .

❁ ❁ ❁

غاية الضلال معرفة الحق بالرجال

وهٰذا وهمٌ باطلٌ ، وهُوَ غالبٌ علىٰ أكثرِ الخَلقِ ، فمهما نسبتَ الكلامَ وأسندْتَهُ إلىٰ قائلٍ حَسُنَ فيهِ ٱعتقادُهُمْ . . قبِلوهُ وإنْ كانَ باطلاً .

وإنْ أسندْتَهُ إلىٰ مَنْ ساءَ فيهِ ٱعتقادُهُمْ . . ردُّوهُ وإنْ كانَ حقّاً ، فأبداً يعرفونَ الحقَّ بالرجالِ ، ولا يعرفونَ الرجالَ بالحقِّ ، وهُوَ غايةُ الضلالِ .

---

(١) الغمر : الذي ليس له تجربة للأمور .

هـٰذهِ آفةُ الردِّ .

ثاني الآفتين في حق القابل

الآفةُ الثانيةُ : آفةُ القَبولِ ؛ فإنَّ مَنْ نظرَ في كتبِهِمْ كـ « إخوانِ الصَّفا » وغيرِهِ ، فرأىٰ ما مزَجوهُ بكلامِهِمْ مِنَ الحكَمِ النبويَّةِ والكلماتِ الصوفيَّةِ . . ربَّما ٱستحسَنَها وقبِلها ، وحَسُنَ ٱعتقادُهُ فيها ، فيسارعُ إلىٰ قَبولِ باطلِهِمُ الممزوجِ بهِ بحسنِ ظنٍّ حصلَ ممَّا رآهُ وٱستحسَنَهُ ، وذلكَ نوعُ ٱستدراجٍ إلى الباطلِ .

ضرب أمثلة متنوعة للنهي عن كتبهم لغير العلماء

ولأجلِ هـٰذهِ الآفةِ يجبُ الزجرُ عنْ مطالعةِ كتبِهِمْ ؛ لِمَا فيها مِنَ الخطرِ والغَرَرِ ، وكما يجبُ صونُ مَنْ لا يُحسنُ السباحةَ عنْ مزالقِ الشُّطوطِ . . يجبُ صونُ الخَلْقِ عنْ مطالعةِ تلكَ الكتبِ .

وكما يجبُ صونُ الصبيانِ عنْ مسِّ الحيَّاتِ . . يجبُ صونُ الأسماعِ عنْ تخليطِ تلكَ الكلماتِ ، وكما يجبُ على المعزِّمِ ألاَّ يمسَّ الحيَّةَ بينَ يدَي ولدِهِ الطفلِ إذا علمَ أنَّهُ سيقتدي بهِ ويظنُّ أنَّهُ مثلُهُ ، بلْ يجبُ عليهِ أنْ يحذِّرَهُ منْهُ بأنْ يَحذَرَ هُوَ في نفسِهِ ولا يمسَّها بينَ يديهِ . . فكذلكَ يجبُ على العالِمِ الراسخِ مثلُهُ .

على العلماء بيان الصحيح من كتبهم

وكما أنَّ المعزِّمَ الحاذقَ إذا أخذَ الحيَّةَ وميَّزَ بينَ التِّرْياقِ

والسُّمِّ ، فٱستخرجَ منْها التِّرْياقَ وأبطلَ السُّمَّ . . فليسَ لهُ أنْ يشحَّ بالترياقِ على المحتاجِ إليهِ .

وكذلكَ الصرَّافُ الناقدُ البصيرُ إذا أدخلَ يدَهُ في كيسِ القَلاَّبِ ، وأخرجَ منْهُ الإبريزَ الخالصَ ، وطرحَ الزيفَ والبهرجَ . . فليسَ لهُ أنْ يشحَّ بالجيِّدِ المرضيِّ علىٰ مَن يحتاجُ إليهِ ؛ كذلكَ العالِمُ .

وكما أنَّ المحتاجَ إلى الترياقِ إذا ٱشمأزَّتْ نفسُهُ منْهُ ؛ حيثُ علِمَ أنَّهُ مستخرَجٌ مِنَ الحيَّةِ التي هِيَ مركزُ السُّمِّ . . وجبَ تعريفُهُ .

والفقيرُ المضطرُّ إلى المالِ إذا نفرَ عنْ قَبولِ الذهبِ المستخرَجِ مِنْ كيسِ القَلاَّبِ . . وجبَ تنبيهُهُ علىٰ أنَّ نَفْرتَهُ جهْلٌ محضٌ هُوَ سببُ حِرمانِهِ الفائدةَ التي هِيَ مطلبُهُ .

وتحتَّمَ تعريفُهُ : أنَّ قُرْبَ الجِوارِ بينَ الزيفِ والجيِّدِ لا يجعلُ الجيِّدَ زيفاً ، كما لا يجعلُ الزيفَ جيِّداً ؛ فكذلكَ قربُ الجوارِ بينَ الحقِّ والباطلِ لا يجعلُ الحقَّ باطلاً ، كما لا يجعلُ الباطلَ حقّاً .

فهٰذا مقدارُ ما أردْنا ذكرَهُ منْ آفةِ الفلسفةِ وغائلتِها .

القول في مذهب التعليم وغائلته

ثُمَّ إنِّي لمَّا فرغتُ مِنْ علمِ الفلسفةِ وتحصيلِهِ وتفهُّمِهِ وتزييفِ ما تَزيَّفَ منْهُ . . علمتُ أنَّ ذلكَ أيضاً غيرُ وافٍ بكمالِ الغرضِ ، وأنَّ العقلَ ليسَ مستقلاً بالإحاطةِ بجميعِ المطالبِ ، ولا كاشفاً للغطاءِ عنْ جميعِ المعضلاتِ .

❁ ❁ ❁

ظهور الباطنية وضرورة كشف حقيقة مذهبهم

وكانَ قدْ نبغتْ نابغةُ التعليميَّةِ[1] ، وشاعَ بينَ الخلقِ تحدُّثُهُمْ بمعرفةِ الأمورِ مِنْ جهةِ الإمامِ المعصومِ القائمِ بالحقِّ ؛ فعَنَّ لي أنْ أبحثَ عنْ مقالتِهِمْ ؛ لأطَّلعَ علىٰ ما في كنانتِهِمْ .

ثُمَّ اتَّفقَ أنْ وردَ عليَّ أمرٌ جازمٌ مِنْ حضرةِ الخلافةِ بتصنيفِ كتابٍ يكشِفُ عنْ حقيقةِ مذهبِهِمْ[2] ، فلمْ يسعْني مدافعتُهُ ، وصارَ ذلكَ مستحِثّاً مِنْ خارجٍ ، ضميمةً للباعثِ الأصليِّ مِنَ الباطنِ .

❁ ❁ ❁

---

(١) والمقصود بالتعليم هنا : هو مذهب الباطنية القائلين بوجوب التعليم ، والأخذ عن المعلم المعصوم .

(٢) وكان الطلب من الخليفة ببغداد المستظهر بالله (٤٨٦ـ ٥١٢هـ) ، فألف الإمام كتابه « فضائح الباطنية » ، ولقب بالمستظهريّ .

فأنتدبتُ لطلبِ كتبِهِمْ وجمعِ مقالاتِهِمْ ، وكانَ قدْ بلغَني بعضُ كلماتِهِمُ المستحدَثةِ التي ولَّدَتْها خواطرُ أهلِ العصرِ ، لا على المنهاجِ المعهودِ مِنْ سلفِهِمْ ، فجمعتُ تلكَ الكلماتِ ، ورتَّبتُها ترتيباً محكَماً مقارناً للتحقيقِ ، وأستوفيتُ الجوابَ عنْها ؛ حتَّىٰ أنكرَ بعضُ أهلِ الحقِّ مبالغتي في تقريرِ حُجَّتِهِمْ ، وقالَ : هٰذا سَعْيٌ لهُمْ ؛ فإنَّهُمْ كانوا يعجِزونَ عنْ نُصرةِ مذهبِهِمْ بمثلِ هٰذهِ الشبهاتِ لولا تحقيقُكَ لها ، وترتيبُكَ إيَّاها !!

جمع كتبهم ومقالاتهم للرد عليهم

❁ ❁ ❁

وهٰذا الإنكارُ مِنْ وجهٍ حقٌّ ؛ فلقدْ أنكرَ أحمدُ ابنُ حنبلٍ على الحارثِ المحاسبيِّ ـ رحمَهُما اللهُ ـ تصنيفَهُ في الردِّ على المعتزلةِ .

فقالَ الحارثُ : (الردُّ على البدعةِ فرْضٌ) .

فقالَ أحمدُ : (نعمْ ؛ ولٰكنْ حكيتَ شبهتَهُمْ أوَّلاً ثُمَّ أجبتَ عنْها ، فبِمَ تأمنُ أنْ يطالعَ الشبهةَ مَنْ يعلَقُ ذلكَ بفهمِهِ ، ولا يلتفتُ إلى الجوابِ ، أوْ ينظرُ في الجوابِ ولا يفهمُ كُنْهَهُ ؟!)[1] .

إنكار الإمام أحمد على المحاسبي في تصنيفه للرد على المعتزلة وفائدة الخلاف

وما ذكرَهُ أحمدُ حقٌّ ؛ ولٰكنْ في شبهةٍ لمْ تنتشرْ ولمْ تَشتهرْ ، فأمَّا إذا أنتشرتْ . . فالجوابُ عنْها واجبٌ ، ولا يمكنُ الجوابُ عنْها إلاَّ بعدَ الحكايةِ .

الرد على شبهة من أنكر فائدة التصنيف للرد على المبتدعة

❁ ❁ ❁

(١) أورده في « قوت القلوب » (١/ ١٦٨) ، و« تاريخ بغداد » (٨/ ٢١١) .

بيان المراد من ذكر شبههم وأنه ليس بالخب ولا يخدعه

نعمْ ؛ ينبغي ألاَّ يتكلَّفَ شبهةً لمْ يتكلَّفُوها ، ولمْ أتكلَّفْ أنا ذلكَ ، بلْ كنتُ قدْ سمعتُ تلكَ الشبهةَ مِنْ واحدٍ مِنْ أصحابي المختلِفينَ إليَّ بعدَ أنْ كانَ قدِ ٱلتحقَ بهِمْ ، وٱنتحلَ مذهبَهُمْ ، وحكىٰ أنَّهُمْ يضحَكُونَ علىٰ تصانيفِ المصنِّفينَ في الردِّ عليهِمْ ، ويقولونَ : إنَّهُمْ لمْ يفهموا بعدُ حُجَّتَهُمْ ، ثُمَّ ذكرَ تلكَ الحُجَّةَ وحكاها عنْهُمْ ، فلمْ أرضَ لنفسي أنْ يُظَنَّ بي الغفلةُ عنْ أصلِ حُجَّتِهِمْ ؛ فلذلكَ أوردْتُها ، ولا أنْ يُظَنَّ بي أنِّي - وإنْ سمعتُها - لمْ أفهمْها ؛ فلذلكَ قرَّرْتُها ، والمقصودُ أنِّي قرَّرْتُ شبهتَهُمْ إلىٰ أقصى الإمكانِ ، ثُمَّ أظهرتُ فسادَها بغايةِ البرهانِ .

كشف خداعهم بدعواهم أنه لا بد من معلم معصوم

والحاصلُ : أنَّهُ لا حاصلَ عندَهُمْ ، ولا طائلَ لكلامِهِمْ ، ولولا سوءُ نُصرةِ الصديقِ الجاهلِ . . لَمَا ٱنتهتْ تلكَ البدعةُ معَ ضعفِها إلىٰ هٰذهِ الدرجةِ ، ولٰكنَّ شدةَ التعصُّبِ دعتِ الذَّابِّينَ عنِ الحقِّ إلىٰ تطويلِ النزاعِ معَهُمْ في مقدِّماتِ كلامِهِم ، وإلىٰ مجاحدتِهِمْ في كلِّ ما نطقوا بهِ ، فجاحدوهُمْ في دعواهُمُ الحاجةَ إلى التعلُّمِ وإلى المعلِّمِ ، وفي دعواهُمْ أنَّهُ لا يَصْلُحُ كلُّ معلِّمٍ ، بلْ لا بدَّ مِنْ معلِّمٍ معصومٍ ، وظهرتْ حُجَّتُهُمْ في إظهارِ الحاجةِ إلى التعلُّمِ وإلى المعلِّمِ ، وضَعُفَ قولُ المنكرينَ في مقابلتِهِ ، فٱغترَّ

بذلكَ جماعةٌ وظنُّوا أنَّ ذلكَ مِنْ قوَّةِ مذهبِهِمْ وضعْفِ المذهبِ المخالفِ لهُ ، ولمْ يفهموا أنَّ ذلكَ لضعفِ ناصرِ الحقِّ ، وجهلِهِ بطريقِهِ .

رد الإمام الغزالي عليهم وإفحامه لهم

بلِ الصوابُ : الِاعترافُ بالحاجةِ إلىٰ معلِّمٍ ، وأنَّهُ لا بدَّ وأنْ يكونَ المعلِّمُ معصوماً ، ولـٰكنَّ معلِّمَنا المعصومَ . . هُوَ محمدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

فإذا قالوا : هُوَ ميِّتٌ . . فنقولُ : ومعلِّمُكُمْ غائبٌ .

فإذا قالوا : معلِّمُنا قدْ علَّمَ الدعاةَ ، وبثَّهُمْ في البلادِ ، وهُوَ ينتظرُ مراجعتَهُم إنِ ٱختلفوا ، أوْ أشكلَ عليهِمْ مشكِلٌ .

فنقولُ : ومعلِّمُنا قدْ علَّمَ الدعاةَ ، وبثَّهُمْ في البلادِ ، وأكملَ التعليمَ ؛ إذْ قالَ اللهُ تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾ ، وبعدَ كمالِ التعليمِ لا يضرُّ موتُ المعلِّمِ ؛ كما لا يضرُّ غَيبتُهُ .

جواب شبهتهم بإعمال الاجتهاد لأنه مظنة الخلاف فكيف يعمل به

فبقيَ قولُهُمْ : كيفَ تَحكُمونَ فيما لمْ تسمعوهُ ؛ أبالنصِّ ولمْ تسمعوهُ ، أمْ بالِاجتهادِ بالرأيِ وهُوَ مَظِنَّةُ الخلافِ ؟

فنقولُ : نفعلُ ما فعلَهُ معاذٌ إذْ بعثَهُ رسولُ اللهِ عليهِ الصلاةُ

والسلامُ إلى اليمنِ ، وأمرَهُ أنْ يحكمَ بالنصِّ عندَ وجودِهِ ، وبالاِجتهادِ عندَ عدمِهِ[1] .

بلْ كما يفعلُهُ دعاتُهُمْ إذا بَعُدوا عنِ الإمامِ إلىٰ أقاصي البلادِ ، إذْ لا يمكنُهُ أنْ يحكمَ بالنصِّ ؛ فإنَّ النصوصَ المتناهيةَ لا تستوفي الوقائعَ غيرَ المتناهيةِ ، ولا يمكنُهُ الرجوعُ في كلِّ واقعةٍ إلىٰ بلدةِ الإمامِ ، وأنْ يقطعَ المسافةَ ويرجعَ ، فيكونُ المستفتي قدْ ماتَ ، وفاتَ الاِنتفاعُ بالرجوعِ .

❀ ❀ ❀

مثالان يبيّنان لإعمال الاجتهاد

فمَنْ أشكلتْ عليهِ القِبلةُ . . ليسَ لهُ طريقٌ إلاَّ أنْ يصلِّيَ بأجتهادِهِ ؛ إذْ لوْ سافرَ إلىٰ بلدِ الإمامِ ليعرِّفَهُ القِبلةَ . . يفوتُ وقتُ الصلاةِ .

فإذا جازتِ الصلاةُ إلىٰ غيرِ القبلةِ بناءً على الظنِّ ، ويقالُ : إنَّ المخطىءَ في الاِجتهادِ لهُ أجرٌ واحدٌ ، وللمُصيبِ أجرانِ . . فكذلكَ في جميعِ المجتهَداتِ .

وكذلكَ أمرُ صرْفِ الزكاةِ إلى الفقيرِ ؛ فربَّما يظنُّهُ فقيراً بأجتهادِهِ وهُوَ غنيٌّ باطناً بإخفائِهِ مالَهُ ، فلا يكونُ مؤاخَذاً بهِ وإنْ أخطأَ ؛ لأنَّهُ لمْ يؤاخذْ إلاَّ بموجِبِ ظنِّهِ .

❀ ❀ ❀

---

(١) رواه أبو داوود (٣٥٩٢) ، والترمذي (١٣٢٧) .

فإنْ قالَ : ظنٌّ مخالفِهِ كظنِّهِ .

فأقولُ : هُوَ مأمورٌ بأتِّباعِ ظنِّ نفسِهِ ؛ كالمجتهدِ في القبلةِ يتَّبِعُ ظنَّهُ وإنْ خالفَهُ غيرُهُ .

كلٌّ مأمورٌ باتباعِ ظنِّ نفسه

فإنْ قالَ : فالمقلِّدُ يتَّبعُ الشافعيَّ أو أبا حنيفةَ أو غيرَهُما ؟

حكم المقلد عند اختلاف المجتهدين

فأقولُ : والمقلِّدُ في القبلةِ عندَ الِاشتباهِ إذا ٱختلفَ عليهِ المجتهدونَ . . كيفَ يصنعُ ؟

فسيقولُ : لهُ معَ نفسِهِ ٱجتهادٌ في معرفةِ الأفضلِ الأعلمِ بدلائلِ القبلةِ ، فيتَّبِعُ ذلكَ الِاجتهادَ ، فكذلكَ في المذاهبِ .

ورَدَّ الخلْقَ إلى الِاجتهادِ ضرورةً الأنبياءُ والأئمَّةُ ، معَ العلْمِ بأنَّهُمْ قدْ يخطئونَ ، بلْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أَنَا أَحْكُمُ بِٱلظَّاهِرِ ، وَٱللهُ يَتَوَلَّى ٱلسَّرَائِرَ » أي : أنا أحكمُ بغالبِ الظنِّ الحاصلِ مِنْ قولِ الشهودِ ، وربَّما أخطىءُ فيهِ ، فلا سبيلَ إلى الأمنِ مِنَ الخطأِ للأنبياءِ في مثلِ هـٰذهِ المجتَهداتِ ، فكيفَ يُطمعُ في ذلكَ ؟

ضرورة رد الخَلْق للاجتهاد عند الحاجة

ولهُمْ هـٰهنا سؤالانِ :

أحدُهُما : قولُهُمْ : هـٰذا وإنْ صحَّ في المجتهَداتِ . . فلا يصحُّ في قواعدِ العقائدِ ؛ إذِ المخطىءُ فيهِ غيرُ معذورٍ ، فكيفَ السبيلُ إليهِ ؟

شبهة الباطنية الأولى: أن المجتهد في قواعد العقائد غير معذور

الرد على تلك الشبهة بالموازين الشرعية

فأقولُ : قواعدُ العقائدِ يشتملُ عليها الكتابُ والسنَّةُ ، وما وراءَ ذلكَ مِنَ التفصيلِ والمتنازَعِ فيهِ.. يُعرَفُ الحقُّ فيهِ بالوزنِ بالقِسطاسِ المستقيمِ ؛ وهِيَ الموازينُ التي ذكرَها اللهُ تعالىٰ في كتابِهِ ، وهِيَ خمسةٌ ذكرْتُها في كتابِ « القِسطاسِ المستقيمِ » .

شبهة: مخالفة الخصم للموازين والرد عليها

فإنْ قالَ : خصومُكَ يخالفونَكَ في ذلكَ الميزانِ .

فأقولُ : لا يُتصوَّرُ أنْ يفهمَ ذلكَ الميزانَ ثُمَّ يخالفَ فيهِ ؛ إذْ لا يخالفُ فيهِ أهلُ التعليمِ ؛ لأنِّي ٱستخرجتُهُ مِنَ القرآنِ وتعلَّمتُهُ منْهُ ، ولا يخالفُ فيهِ أهلُ المنطقِ ؛ لأنَّهُ موافقٌ لِمَا شرطوهُ في المنطق غيرُ مخالفٍ لهُ ، ولا يخالفُ فيهِ المتكلِّمُ ؛ لأنَّهُ موافقٌ لِمَا يذكرُهُ في أدلَّةِ النظريَّاتِ ، وبهِ يُعرَفُ الحقُّ في الكلاميَّاتِ .

شبهة: لم يرفع هذا الميزان الخلاف والرد عليها

فإنْ قالَ : فإنْ كانَ في يدِكَ مثلُ هٰذا الميزانِ.. فلِمَ لا ترفعُ الخلافَ بينَ الخلْقِ ؟

فأقولُ : لوْ أصْغَوا إليَّ.. لرفعتُ الخلافَ بينَهُمْ ، وذكرتُ طريقَ رفْعِ الخلافِ في كتابِ « القسطاسِ المستقيمِ » ، فتأمَّلْهُ لتعلمَ أنَّهُ حقٌّ ، وأنَّهُ يرفعُ الخلافَ قطعاً لوْ أصغَوا ، ولا يصغونَ بأجمعِهِمْ ؛ بلْ قدْ أصغَىٰ إليَّ طائفةٌ ، فرفعتُ الخلافَ بينَهُمْ .

وإمامُك يريدُ رفعَ الخلافِ بينَهُمْ معَ عدَمِ إصغائِهِمْ ؛ فلِمَ لمْ

يرفعْ إلى الآنَ ؟! ولِمَ لَمْ يرفعْ عليٌّ رضيَ اللهُ عنْهُ وهُوَ رأسُ الأئمَّةِ ؟!

أوَيدَّعي أنَّهُ يقدرُ علىٰ حمْلِ كافتِهِمْ على الإصغاءِ قهراً ؛ فلِمَ لمْ يحملْهُمْ إلى الآنَ ؟! ولأيِّ يومٍ أجَّلَهُ ؟! وهلْ حصلَ بينَ الخلْقِ بسببِ دعوتِهِ إلاَّ زيادةُ خلافٍ وزيادةُ مخالفٍ ؟!

نعمْ ؛ كانَ يُخشىٰ مِنَ الخلافِ نوعٌ مِنَ الضررِ لا ينتهي إلىٰ سفْكِ الدماءِ ، وتخريبِ البلادِ ، وإيتامِ الأولادِ ، وقطْعِ الطرقِ ، والإغارةِ على الأموالِ .

وقدْ حدَثَ في العالَمِ مِنْ بركاتِ رفعِكُمُ الخلافَ مِنَ الخلافِ ما لمْ يكنْ بمثلِهِ عهْدٌ !!

❁ ❁ ❁

الشبهة الثانية: لم يلزم المتحير الإصغاء إلى المؤلف دون غيره والرد عليها بأن مدعيها أولىٰ بها

فإنْ قالَ : أدَّعيتَ أنَّكَ ترفعُ الخلافَ بينَ الخلقِ ، ولٰكنَّ المتحيِّرَ بينَ المذاهبِ المتعارضةِ ، والاختلافاتِ المتقابلةِ . . لِمَ يلزمُهُ الإصغاءُ إليكَ دونَ خصمِكَ ، ولكَ خصومٌ يخالفونَكَ ، ولا فرْقَ بينَكَ وبينَهُمْ ؟

وهٰذا هُوَ سؤالُهُمُ الثاني .

فأقولُ : هٰذا أوَّلاً ينقلبُ عليكَ ؛ فإنَّكَ إذا دعوتَ هٰذا المتحيِّرَ إلىٰ نفسِكَ . . فيقولُ المتحيِّرُ : بِمَ صرْتَ أوْلىٰ مِنْ مخالفيكَ ، وأكثرُ أهلِ العلمِ يخالفونَكَ ؟

فليتَ شِعْري ؛ بماذا تجيبُ ؟ أتجيبُهُ بأنْ تقولَ : إمامي منصوصٌ عليهِ ؟!

فمَنْ يصدِّقُكَ في دعوى النصِّ وهُوَ لمْ يسمعِ النصَّ مِنَ الرسولِ ؟ وإنَّما يسمعُ دعواكَ معَ تطابقِ أهلِ العلمِ على اختراعِكَ وتكذيبِكَ .

❁ ❁ ❁

ثُمَّ هبْ أنَّهُ سلَّمَ لكَ النصَّ ؛ فإذا كانَ متحيِّراً في أصلِ النبوَّةِ ، فقالَ : هبْ أنَّ إمامَكَ يُدلي بمعجزةِ عيسىٰ عليهِ السلامُ فيقولُ : الدليلُ علىٰ صدقي أنِّي أحيي أباكَ ، فأحياهُ ، فناطقَني بأنَّهُ محقٌّ . . فبماذا أعلمُ صدقَهُ ولمْ يعلمْ كافَّةُ الخلْقِ صدقَ عيسىٰ عليهِ السلامُ بهـٰذهِ المعجزةِ ؟

بلْ عليهِ مِنَ الأسئلةِ المشكلةِ ما لا يدفعُ إلاَّ بدقيقِ النظرِ العقليِّ ، والنظرُ العقليُّ لا يُوثَقُ بهِ عندَكَ ، ولا يعرفُ دلالةَ المعجزةِ على الصدقِ ما لمْ يعرفِ السحْرَ والتمييزَ بينَهُ وبينَ المعجزةِ ، وما لمْ يعرفْ أنَّ اللهَ لا يضلُّ عبادَهُ ، وسؤالُ الإضلالِ وعسرُ تحريرِ الجوابِ عنْهُ مشهورٌ ، فبماذا تدفعُ جميعَ ذلكَ ولمْ يكنْ إمامُكَ أولىٰ بالمتابعةِ مِنْ مخالفِهِ ؟

فسيرجعُ إلى الأدلَّةِ النظريَّةِ التي ينكرُها ، وخصمُهُ يدلي بمثلِ تلكَ الأدلةِ وأوضحَ منْها ، وهـٰذا السؤالُ قدِ انقلبَ عليهِ انقلاباً

عظيماً ، لوِ آجتمعَ أوَّلُهُمْ وآخرُهُمْ علىٰ أنْ يُحيروا عنهُ جواباً . . لمْ يقدروا عليهِ .

وإنَّما نشأَ الفسادُ مِنْ جماعةٍ مِنَ الضَّعَفَةِ ناظروهُمْ ، فلمْ يشتغلوا بالقلْبِ بلْ بالجوابِ ، وذلكَ مما يطولُ فيهِ الكلامُ ، ولا يسبقُ سريعاً إلى الأفهامِ ، فلا يصلحُ للإفحامِ .

بيان الجواب علىٰ هٰذا القلب

فإنْ قالَ قائلٌ : فهٰذا هُوَ القلْبُ ، فهلْ عنهُ جوابٌ ؟

فأقولُ : نعمْ ؛ جوابُهُ : أنَّ المتحيِّرَ إنْ قالَ : أنا متحيِّرٌ ولمْ يعيِّنِ المسألةَ التي هُوَ متحيِّرٌ فيها . . فيُقالُ لهُ : أنتَ كمريضٍ يقولُ : أنا مريضٌ ولا يذكرُ عينَ مرضِهِ ، ويطلبُ علاجَهُ .

فيُقالُ لهُ : ليسَ في الوجودِ علاجٌ للمرضِ المطلقِ ، بلْ لمرضٍ معيَّنٍ ؛ مِنْ صداعٍ ، أوْ إسهالٍ ، أوْ غيرِهِما . . فكذلكَ المتحيِّرُ ينبغي أنْ يعيِّنَ ما هُوَ متحيِّرٌ فيهِ .

فإنْ عيَّنَ المسألةَ . . عرَّفْتَهُ الحقَّ فيها بالوزنِ بالموازينِ الخمسةِ التي لا يفهمُها أحدٌ إلاَّ ويعترفُ بأنَّهُ الميزانُ الحقُّ الذي يُوثَقُ بكلِّ ما يُوزَنُ بهِ ، فيفهمُ الميزانَ ، ويفهمُ منهُ أيضاً صحةَ الوزنِ ؛ كما يفهمُ متعلِّمُ علمِ الحسابِ نفْسَ الحسابِ ، وكونَ المحاسبِ المعلِّمِ عالماً بالحسابِ وصادقاً فيهِ ، وقدْ أوضحتُ ذلكَ في كتابِ

« القِسطاسِ المستقيمِ » في مقدارِ عشرينَ ورقةً ، فليُتأمَّلْ .

بيان بالكتب التي ردّ بها الإمام الغزاليّ على الباطنية

وليسَ المقصودُ الآنَ بيانَ فسادِ مذهبِهِمْ ؛ فقدْ ذكرتُ ذلكَ في كتابِ « المُستظهِريِّ » أوّلاً ، وفي كتابِ « حُجَّةِ الحقِّ » ثانياً ؛ وهُوَ جوابُ كلامٍ لهُمْ عُرِضَ عليَّ ببغداذَ ، وفي كتابِ « مفصلِ الخلافِ » الذي هُوَ أثنا عشرَ فصلاً ثالثاً ؛ وهُوَ جوابُ كلامٍ لهُمْ عُرِضَ علي بهَمَذانَ ، وفي كتابِ « الدَّرَجِ » المرقومِ بالجداولِ رابعاً ؛ وهُوَ مِنْ رَكيكِ كلامِهِمُ الذي عُرِضَ عليَّ بطُوسَ ، وفي كتابِ « القِسطاسِ المستقيمِ » خامساً ؛ وهُوَ كتابٌ مستقلٌّ ؛ مقصودُهُ : بيانُ ميزانِ العلومِ ، وإظهارُ الإستغناءِ عنِ الإمامِ المعصومِ لمنْ أحاطَ بهِ .

بيان سفه الباطنية

بلِ المقصودُ : أنَّ هؤلاءِ ليسَ معَهُمْ شيءٌ مِنَ الشفاءِ المُنجي مِنْ ظُلُماتِ الآراءِ ، بلْ همْ معَ عجزِهِمْ عنْ إقامةِ البرهانِ علىٰ تعيينِ الإمامِ طالَما جربْناهُمْ ، فصدَّقْناهُمْ في الحاجةِ إلى التعليمِ ، وإلى المعلِّمِ المعصومِ ، وأنَّهُ الذي عيَّنوهُ ، ثُمَّ سألْناهُمْ عنِ العلمِ الذي تعلَّموهُ مِنْ هٰذا المعصومِ ، وعرضْنا عليهِمْ إشكالاتٍ ؛ فلمْ يفهموها فضلاً عنِ القيامِ بحلِّها ، فلمَّا عجَزوا . . أحالوا على الإمامِ الغائبِ ، وقالوا : إنَّهُ لا بدَّ مِنَ السفرِ إليهِ !

والعجبُ أنَّهُمْ ضيَّعوا عمرَهُمْ في طلبِ المعلِّمِ وفي التبجُّحِ بالظفرِ بهِ ، ولمْ يتعلَّموا منهُ شيئاً أصلاً ؛ كالمضمَّخِ بالنجاسةِ ، يتعبُ في طلبِ الماءِ حتَّىٰ إذا وجدَهُ.. لمْ يستعملْهُ ، وبقيَ مضمَّخاً بالخبائثِ !

اعتماد الباطنية علىٰ أركُ مذاهب الفلسفة دليل علىٰ سفه معتقدهم

ومنْهُمْ مَنِ ٱدَّعىٰ شيئاً مِنْ علمِهِمْ ، فكانَ حاصلُ ما ذكرَهُ شيئاً مِنْ رَكيكِ فلسفةِ فيثاغورسَ ؛ وهُوَ رجلٌ مِنْ قدماءِ الأوائلِ ، ومذهبُهُ أركُّ مذاهبِ الفلسفةِ ، وقدْ رَدَّ عليهِ أرسطاطاليسُ ، بلِ ٱسترَكَّ كلامَهُ وٱسترذَلَهُ ، وهُوَ المحكيُّ في كتابِ « إخوان الصَّفا » ، وهُوَ على التحقيقِ حشوُ الفلسفةِ .

من عرف حقيقتهم نفض اليد عنهم

فالعجبُ ممَّنْ يتعبُ طولَ العُمرِ في تحصيلِ العلمِ ، ثُمَّ يقنعُ بمثلِ ذلكَ العلمِ الركيكِ المستغَثِّ[1] ، ويظنُّ أنَّهُ ظفِرَ بأقصىٰ مقاصدِ العلومِ !!

فهٰؤلاءِ أيضاً جرَّبْناهُمْ وسبرْنا ظاهرَهُمْ وباطنَهُمْ ، فرجعَ حاصلُهُمْ إلى ٱستدراجِ العوامِّ وضعفاءِ العقولِ ببيانِ الحاجةِ إلى المعلِّمِ ، ومجادلتِهِمْ في إنكارِهِمُ الحاجةَ إلى التعليمِ بكلامٍ قويٍّ مفْحِمٍ ؛ حتَّىٰ إذا ساعدَهُمْ على الحاجةِ إلى المعلِّمِ مساعدٌ وقالَ :

---

(١) المستغَثُّ : الذي لا يغني ولا ينفع .

هاتِ علمَهُ وأفدْنا مِنْ تعليمِهِ.. وقفَ ، وقالَ : الآنَ إذْ سلَّمْتَ لي هـٰذا.. فأطلبْهُ ، فإنَّما غرضي هـٰذا القدْرُ فقطْ ؛ إذْ علِمَ أنَّهُ لوْ زادَ علىٰ ذلكَ.. لافتُضِحَ ، ولعجَزَ عنْ حلِّ أدنى الإشكالاتِ ، بلْ عجَزَ عنْ فهمِهِ فضلاً عنْ جوابِهِ .

فهـٰذه حقيقةُ حالِهِمْ ؛ فأخبِرْهُمْ.. تَقْلَهُمْ ، فلمَّا خبَرْناهُمْ.. نفضْنا اليدَ عنْهُمْ .

القول في طرق الصوفية

التصوف علم وعمل

ثُمَّ إنِّي لمَّا فرغتُ مِنْ هـٰذهِ العلومِ . . أقبلتُ بهمَّتِي علىٰ طريقِ الصوفيَّةِ ، وعلمتُ أنَّ طريقتَهُمْ إنَّما تتمُّ بعلمٍ وعملٍ .

وكانَ حاصلُ علمِهِمْ قطعَ عَقَباتِ النفسِ ، والتنزُّهَ عنْ أخلاقِها المذمومةِ وصفاتِها الخبيثةِ ؛ حتَّىٰ يتوصَّلَ بها إلىٰ تخليةِ القلبِ عنْ غيرِ اللهِ ، وتحليتِهِ بذكْرِ اللهِ .

اطلاع الإمام الغزالي علىٰ كنه مقاصد الصوفية

وكانَ العلمُ أيسرَ عليَّ مِنَ العملِ ، فابتدأتُ بتحصيلِ علمِهِمْ مِنْ مطالعةِ كتبِهِمْ ؛ مثلُ « قوتِ القلوبِ » لأبي طالبٍ المكيِّ ، وكتبِ الحارثِ المحاسبيِّ ، والمتفرِّقاتِ المأثورةِ عنِ الجنيدِ والشِّبليِّ وأبي يزيدَ البِسطاميِّ ، وغيرِهِمْ مِنَ المشايخِ ، حتَّى اطَّلعتُ علىٰ كُنْهِ مقاصدِهِمُ العلميَّةِ ، وحصَّلْتُ ما يمكنُ أنْ يُحصَّلَ مِنْ طريقِهِمْ بالتعلُّمِ والسماعِ .

لا تدرك حقيقة التصوف إلا بالذوق لا بمجرد التكلم

فظهرَ لي أنَّ أخصَّ خواصِّهِمْ ما لا يمكنُ الوصولُ إليهِ بالتعلُّمِ ، بلْ بالذوقِ والحالِ وتبدُّلِ الصفاتِ .

فكمْ مِنَ الفرقِ بينَ أنْ تعلَمَ حدَّ الصحَّةِ وحدَّ الشبعِ وأسبابَهُما

وشروطَهُما ، وبينَ أنْ تكونَ صحيحاً شبعانَ ، وبينَ أنْ تعرفَ حدَّ السكْرِ وأنَّهُ عبارةٌ عنْ حالةٍ تحصُلُ مِنِ ٱستيلاءِ أبخرَةٍ تتصاعدُ مِنَ المعدةِ علىٰ معادنِ الفكرِ ، وبينَ أنْ تكونَ سكرانَ ، بلِ السكرانُ لا يعرفُ حدَّ السكْرِ وعلمَهُ وهُوَ سكرانُ وما معَهُ مِنْ علمِهِ شيءٌ !

والطبيبُ يعرفُ حدَّ المرض وأركانَهُ وما معَهُ مِنَ المرضِ شيءٌ ، والطبيبُ في حالةِ المرضِ يعرفُ حدَّ الصحَّةِ وأسبابَها وأدويتَها وهُوَ فاقدٌ الصحةَ ، فكذلكَ فرقٌ بينَ أنْ تعرفَ حقيقةَ الزهدِ وشروطَهُ وأسبابَهُ ، وبينَ أنْ يكونَ حالُكَ الزهدَ وعزوفَ النفسِ عنِ الدنيا .

فعلمتُ يقيناً أنَّهُمْ أربابُ أحوالٍ ، لا أصحابُ أقوالٍ ، وأنَّ ما يمكنُ تحصيلُهُ بطريقِ العلمِ فقدْ حصَّلتُهُ ، ولمْ يبقَ إلاَّ ما لا سبيلَ إليهِ بالسماعِ والتعلُّمِ ، بلْ بالذوْقِ والسلوكِ .

❁ ❁ ❁

ثلاثة أصول من الإيمان رسخت في نفس الإمام الغزالي بما معه من العلم

وكانَ قدْ حصلَ معي مِنَ العلومِ التي مارستُها والمسالكِ التي سلكتُها في التفتيشِ عنْ صنفَيِ العلومِ الشرعيَّةِ والعقليَّةِ : إيمانٌ يقينيٌّ باللهِ تعالىٰ ، وبالنبوَّةِ ، وباليومِ الآخرِ .

فهٰذهِ الأصولُ الثلاثةُ مِنَ الإيمانِ كانتْ قدْ رسختْ في نفسي لا بدليلٍ معيَّنٍ محرَّرٍ ، بلْ بأسبابٍ وقرائنَ وتجارِبَ لا تدخلُ تحتَ الحصْرِ تفاصيلُها .

❁ ❁ ❁

سعادة الآخرة بالتقوىٰ وتهذيب النفس

وكانَ قدْ ظهرَ عندي أنَّهُ لا مطمعَ في سعادةِ الآخرةِ إلاَّ بالتقوىٰ ، وكفِّ النفْسِ عنِ الهوىٰ ، وأنَّ رأسَ ذلكَ كلِّهِ قطعُ علاقةِ القلْبِ عنِ الدنيا ؛ بالتجافي عنْ دارِ الغُرورِ ، والإنابةِ إلىٰ دارِ الخلودِ ، والإقبالِ بكُنْهِ الهمَّةِ على اللهِ تعالىٰ ، وأنَّ ذلكَ لا يتمُّ إلاَّ بالإعراضِ عنِ الجاهِ والمالِ ، والهربِ مِنَ الشواغلِ والعلائقِ .

بدء محاسبة النفس وظهور خفايا مخيفة

ثُمَّ لاحظتُ أحوالي ؛ فإذا أنا منغمسٌ في العلائقِ وقدْ أحدقتْ بي مِنَ الجوانبِ ، ولاحظتُ أعمالي ـ وأحسنُها التدريسُ والتعليمُ ـ فإذا أنا فيها مقبلٌ علىٰ علومٍ غيرِ مهمَّةٍ ، ولا نافعةٍ في طريقِ الآخرةِ.

ثُمَّ تفكَّرْتُ في نيَّتي في التدريسِ ؛ فإذا هِيَ غيرُ خالصةٍ لوجهِ اللهِ تعالىٰ ، بلْ باعثُها ومحرِّكُها : طلبُ الجاهِ وانتشارُ الصيتِ ، فتيقَّنْتُ أنِّي علىٰ شفا جُرُفٍ هارٍ ، وأنِّي قدْ أشفَيتُ على النارِ إنْ لمْ أشتغلْ بتلافي الأحوالِ .

فلمْ أزلْ أتفكَّرُ فيهِ مدَّةً وأنا بعدُ علىٰ مقامِ الِاختيارِ ؛ أصمِّمُ العزْمَ على الخروجِ مِنْ بغدادَ ، ومفارقةِ تلكَ الأحوالِ يوماً ، وأحُلُّ العزمَ يوماً ، وأقدِّمُ فيهِ رجلاً ، وأؤخِّرُ عنْهُ أخرىٰ ، لا تصدُقُ لي رغبةٌ في طلبِ الآخرةِ بُكرةً إلاَّ ويحملُ عليها جندُ الشهوةِ حملةً ، فيفترُّها عشيَّةً .

صراع الشهوات الدنيا مع منادي الإيمان

فصارتْ شهواتُ الدنيا تجاذبُني بسلاسلِها إلى المُقامِ ، ومنادي الإيمانِ ينادي : الرحيلَ الرحيلَ ؛ فلمْ يبقَ مِنَ العُمرِ إلاَّ قليلٌ ، وبينَ يدَيكَ السفرُ الطويلُ ، وجميعُ ما أنتَ فيهِ مِنَ العلمِ والعملِ رياءٌ وتخييلٌ ، فإنْ لمْ تستعدَّ الآنَ للآخرةِ . . فمتىٰ تستعدُّ ؟ وإنْ لمْ تقطعِ الآنَ هٰذهِ العلائقَ . . فمتىٰ تقطعُ ؟!

فعندَ ذلكَ تنبعثُ الداعيةُ ، وينجزمُ العزمُ على الهربِ والفرارِ .

ثُمَّ يعودُ الشيطانُ ويقولُ : هٰذهِ حالةٌ عارضةٌ ، إيَّاكَ أنْ تطاوعَها ؛ فإنَّها سريعةُ الزوالِ ، فإنْ أذعنتَ لها ، وتركتَ هٰذا الجاهَ العريضَ ، والشأنَ المنظومَ الخاليَ عنِ التكديرِ والتنغيصِ ، والأمرَ المسلَّمَ الصافيَ عنْ منازعةِ الخصومِ . . ربَّما ألتفتتْ إليهِ نفسُكَ ، ولا يتيسَّرُ لكَ المعاودةُ .

❁ ❁ ❁

مدة هٰذا الصراع وعاقبته

فلمْ أزلْ أتردَّدُ بينَ تجاذبِ شهواتِ الدنيا ودواعي الآخرةِ قريباً مِنْ ستَّةِ أشهرٍ .

أوَّلُها : رجبٌ ، سنةَ ثمانٍ وثمانينَ وأربعِ مئةٍ[1] ، وفي هٰذا الشهرِ جاوزَ الأمرُ حدَّ الإختيارِ إلى الإضطرارِ ؛ إذْ أقفلَ اللهُ علىٰ لساني حتَّى ٱعتقلَ عنِ التدريسِ ، فكنتُ أجاهدُ نفسي أنْ أدرِّسَ

(١) في (د ، هـ ، و) : (ست وثمانين وأربع مئة) .

يوماً واحداً تطييباً لقلوبِ المختلفةِ إليَّ ، فكانَ لا ينطلقُ لساني بكلمةٍ واحدةٍ ، ولا أستطيعُها ألبتةَ .

ثُمَّ أورثتْ هـٰذهِ العُقْلَةُ في اللسانِ حزناً في القلبِ[1] ، بطلَ معَهُ قوَّةُ الهضْمِ ومَراءةُ الطعامِ والشرابِ ، فكانَ لا ينساغُ لي شَربةٌ ، ولا تنهضمُ لي لقمةٌ ، وتعدَّىٰ إلىٰ ضعْفِ القُوىٰ ، حتَّىٰ قطعَ الأطبَّاءُ طمعَهُمْ مِنَ العلاجِ ، وقالوا : هـٰذا أمرٌ نزلَ بالقلبِ ، ومنْهُ سَرَىٰ إلى المِزاج ، فلا سبيلَ إليه بالعلاج إلاَّ بأنْ يتروَّحَ السرُّ عنِ الهمِّ الملمِّ .

❀ ❀ ❀

حسم الأمر بالالتجاء لصاحب الأمر

ثُمَّ لمَّا أحسسْتُ بعجزي ، وسقطَ بالكلِّيَّةِ ٱختياري . . ٱلتجأتُ إلى اللهِ تعالى ٱلتجاءَ المضطرِّ الذي لا حيلَةَ لهُ ، فأجابَني الذي يجيبُ المضطرَّ إذا دعاهُ ، وسهَّلَ علىٰ قلبي الإعراضَ عنِ الجاهِ والمالِ ، والأهلِ والولدِ والأصحابِ ، وأظهرتُ عزمَ الخروجِ إلىٰ مكَّةَ ، وأنا أورِّي في نفسي سفرَ الشامِ ؛ حِذاراً منْ أنْ يطَّلعَ الخليفةُ وجملةُ الأصحابِ علىٰ عزمي على المقامِ بالشامِ ، فتلطفتُ بلطائفِ الحيلِ في الخروجِ مِنْ بغدادَ علىٰ عزمِ ألاَّ أعاودَها أبداً .

العزم على السفر إلى الشام

❀ ❀ ❀

(١) يقال : اعتقل لسانه ؛ إذا حبس ومنع الكلام .